مقدمة

الوقت الذي تنتظر فيه دورك في عيادة أحد الأطباء، أو الوقت الذي تقضيه أثناء سفرك لساعات طويلة في القطار أو ساعات الانتظار في المطار، أو لتجنب تمضية وقت سخيف برفقة أحد تسأم حديثه أو الوقت الذي تجلس به وحيداً ويمضي بثقل، من أجل هذا كله، كتبت تلك الحكايات، فهي حكايات هدفها الوحيد هو قتل الوقت قبل أن يقلنا الملل .

*نصيحة لا تقرأ هذه القصص بحسب ترتيبها الموضوع،

بل أقرأ أولاً ما يلفت انتباهك من عناوين القصص.

إهداء

إلى الكتابة نفسها

إن كتاباتي في مجملها هي

محاولة للتأقلم.. محاولة للنجاة من الألم

إهداء إلى قلبي الذي أجهدته معي جداً

... و إلى الله الذي وهبني خيالي كي أخلق عوالم تؤنسني، و أعيش حيوات كُثر.. لا حياة واحدة

... وإلى أصدقائي الذين كانوا ترمومتر لما أكتب (دولاجي مجدي – علياء سعد الدين – لوسيان هاني – مارتينا ثروت – شيماء إسماعيل – مريم رأفت - وكل مَن قرأ لي حرفاً)

المحتويات

مقدمة ١
إهداء ٢
الحكاية الأولى : مصرع قطة ٤
الحكاية الثانية: الشك ١٢
الحكاية الثالثة : كيف ترتكب جريمتك الأولى ١٩
الحكاية الرابعة : حكاية حياة ٢٧
الحكاية الخامسة : الغمامة السوداء ٣٨
الحكاية السادسة : اللحظات الأخيرة ٤٤
الحكاية السابعة : المحاولة ٥١
الحكاية الثامنة : القديسة ٥٥
الحكاية التاسعة: جرائم الخيال ٥٩
الحكاية العاشرة: الخائن ٦٧
الحكاية الحادية عشر: شريك حياتي ٧٣
الحكاية الثانية عشر: الموت يصل غداً ٨١
الحكاية الثالثة عشر: على الطريق ٩٠
الحكاية الرابعة عشر: السارقة ٩٥
الحكاية الخامسة عشر: الجانب الآخر ٩٩
الحكاية السادسة عشر: ١٦ سؤال في الحب ١٠٦
الحكاية السابعة عشر: موسم الصيد ١١٠
الحكاية الثامنة عشر: الأشباح ١١٨
الحكاية التاسعة عشر: مذكرات فتاة في الثانية عشر ١٢٣
الحكاية العشرون: محكمة الحب ١٢٧

الحكاية الأولى : مصرع قطة

في نهار أحد الأيام المعتادة، استيقظت مبكراً لإعداد طعام الفطور وذهبت إلى المطبخ فوجدت قطتي وقد استيقظت أيضاً، أتت إليّ سريعاً كعادتها ثم تمسحت فيّ وحاولت تسلقي لأحملها، نظرت إليها فرأيت حدقت عيناها وقد اتسعت محبةً لي، مددت ذراعي لها صعدت عليه حتى وصلت إلى كتفي ثم أخرجت لسانها ولعقت خدي به ثم حاولت تقبيلي، ابتسمت لقطتي الصغيرة واستسلمت لمحاولتها تقبيلي ثم فكرت أن أعد لها طعام الفطور الذي يتكون من حليب داخل بيبرونة نظراً لصغرها، كان زوجي استيقظ حينها ثم غسل وجهه وأتى إلى المطبخ، فرآني وأنا أحمل قطتي على يدي، نظر لي شزراً وقال لي

_ ده إحنا لو خلفنا، مش هتهتمي بالعيل زي القطة

زفرت ضيقاً من كلامه وأنزلت القطة من على ذراعي بعد أن أعددت لها طعامها لتأكله، ألف هناء وشفاء على قلبها، وبدأت في إعداد الفطور لي ولزوجي ثم وضعت الأطباق على الطاولة وقبل أن أضع الماء والخبز نظر زوجي إلى القطة باستياء

_ طبعاً القطة بتفطر قبلي

استاءت من كلامه لي، كنت أعلم أن زوجي يغار من قطتي، لكن لم أكن أعلم لما يضع نفسه في مقارنة دائماً معها، نظرت له وقلت

_ طب ساعدني خلينا نحط الاكل ونفطر

قام بمساعدتي في ترتيب المائدة وبدأنا نأكل، ثم أتت قطتي وبدأت تحوم تحت أرجل زوجي وتموء أمامه، نفخ زوجي ضيقاً بها وقال بصوت مرتفع

_ وبعدين بقى في القطة بنت الكلب دي

ابتسمت وقلت له

_ بتحبك ياخي

امتعض حينها وأكمل طعامه وهو يتحاشها، قلت له

_ إيه رأيك نسميها إيه

_ ونسميها لية أصلا، تبقى القطة، هو في قطة غيرها في البيت

مططت شفتاي استياءً من كلامه وقلت له

_أنا هسميها كاربي

لم يجيبني لكنه أكمل طعامه كأنه لم يسمعني، أو أن ما قلته له لا يعني له شيئاً ، حزنت لتجاهله حديثي لكنها كانت عادته، انهى زوجي طعامه وخرج إلى عمله سريعاً وبقيت في المنزل أنا وكاربي سوياً، قمت بغسل الأواني، ثم تنظيف المنزل وكانت كاربي تلاحقني في كل عمل أفعله، تتسلق ظهري حيناً ثم تعلق يدي وتعطيني قبلات حيناً أخرى وحين انتهيت من عمل المنزل، شرعت في إعداد طعام الغداء وبجانبي قطتي تلاعبني، وأحياناً أحملها واحتضنها، وقد أشغلت جهاز التلفاز لأستأنس به قليلاً، وهكذا كانت حياتي تسير على هذا النحو الرتيب حتى يعود زوجي في المساء وهو عابس وجهه لا يرغب سوى في تناول الطعام ومشاهدة التلفاز، لم يكن هناك شيء يؤنس وحدتي سوى قطتي كاربي التي وجدتها منذ أسبوع وهي قطة وليدة أمام مدخل العمارة تموء بصوت منخفض، فأشفقت عليها وأخذتها، عارض زوجي في البداية كونه لا يحب القطط ولكن أمام إصراري وافق، أخذتها في الأيام الأولى وبدأت راعياتها وبدأ زوجي يشتكي من صوت مواءها وإنه مزعج له، لكنه رضى بالأمر الواقع في نهاية الأمر، وأصبحت القطة فرداً من أسرتنا الصغيرة وأضفت الفرحة والبهجة لحياتي عندما ألعب معها والاطفها.

كبرت قطتي، وكبر تعلقي بها، شعرت أنها ابنتي، لا استغنى عن ملاطفتها يوماً، أما زوجي فقد كان يُجن حين تكسر شيئاً أو تتلف أحد أسلاك الشاحن أو السماعات الخاصة به، فأتي لأنقذها وأهرب بها من أمام بطش زوجي الغاضب، بدأ حينها يلح عليّ كي نخرجها من المنزل لكني رفضت بشدة وتمسكت بها وكنت أرى أنه دائماً يغار منها لأسباب لا أعلمها.

مرت حياتنا هكذا حتى أتى يوم وقرأت إعلان وظائف على موقع الانترنت، أريته لزوجي وأخبرته برغبتي في التقديم لهذا العمل، كما إنه عمل من المنزل، فلن أخرج، ما رأيك، نظر لي باستهزاء، ثم أخرج نفساً طويلاً وهو يتأفف ولم يُجب، أكره تلك الطريقة التي يتعامل بها زوجي معي، حين لا يعجبه أحد اقتراحاتي فيقوم بتجاهلي ليشعرني كم أنا سخيفة وما اقوله هراء له، بدأت أتوتر وأنا أرغب في أن يجيب سؤالي، لذا قلت له بصوت مرتفع، حسناً أنا سأتقدم للوظيفة لأني أجدها مناسبة لي، نظر لي طويلاً وقال

_بس أنا مش موافق

أزداد غضبي وقلت

_ أنت كل حاجة مش موافق، مش موافق، كل ما اجيبلك وظيفة تطلع فيها القطط الفاطسة

زفر مجددا وحاول أن يبدو هادئاً واقترب مني بعد أن رقق صوته قائلاً

_ما تيجي نشوف موضوع الخلفة وتبقي شغلتي نفسك بجد

حينها تقدمت قطتي نحو قدمي وبدأت تموء ولم يكن لي رغبة في اللعب معها فأكملت حديثي متجاهلة قطتي كاربي

_ إحنا حاولنا في الموضوع ده قبل كدة وخلاص أنا مش هحاول تاني

اتجهت القطة من قدمي إلى قدم زوجي وبدأت تموء حوله حتى يلاعبها لكنه تجاهلها أيضاً وقال

_ يعني هنعيش حياتنا كدة، أنا عايز أولاد

بدأت القطة تقفز نحو زوجي لكنه تجاهلها مستاء من الضجيج الذي أحدثته

_ طب اسمع بقى يا عمرو، أنا هقدم على الوظيفة دي وهشتغل فيها وده آخر قرار عندي

ثم تركته وذهبت إلى الغرفة متجاهلة وجوده مثلما يفعل معي وبدأ يصيح بصوت عالي، كنت أعلم ان هذا سيستفزه، لا بأس فليشعر قليلاً بما أشعر به دائماً حين يتجاهلني، ثم سعمته يحدث القطة قائلاً

_ وأنت عايزة انتي كمان، غوري بقى

ثم لم أسمع شيء، صمت زوجي فجأة، توقفت ثورته بلا مقدمات، قلقني ذلك، ذهبت لأرى ماذا حدث، رأيت زوجي جالس على الأريكة وينظر إلى أسفل وقطتي لا أجدها، سألته

_ فين كاربي

لكنه لم يرد كعادته،

ثم أخذ نفساً عميقاً وقال ورأيت نظرات نادمة في عينيه

_جتت تتنطط جمبي وكنت عايز ابعدها عني، محستش بنفسي غير وأنا برميها من البلكونة

جريت على الشرفة، رأيت قطتي مرمية أمام المدخل العمارة، نزلت لأعرف ما حدث لها، فوجدها قد ماتت بعد أن تكسرت أضلعها، بكيت عليها بشدة، نظرت إلى زوجي واقفاً خلفي وعينيه تبدو آسفه على ما فعل، لكن لم أحتمل أن أعيش معه في منزل واحد، فذهبت إلي بيت والدتي وأنا أفكر في الطلاق.

بعد مرور شهر

استيقظت في صباح كئيب كحياتي، غسلت وجهي ثم اتجهت إلى المطبخ لإعداد طعام الفطور، افتقدت قطتي كثيراً، مواءها وصوتها وملاحقتها لي، كنت أرغب في احتضانها مرة أخرى وهي تتمسح بأنفي ووجنتي، أين أنت يا كاربي ، لا أحد يعلم أن يكون عالمك الصغير ليس به ما يهون عليك سوى كائن رقيق مثل قطتي ثم تفقده، كنت وحيدة جدا، ليس لي عمل يشغلني أو اولاد أستأنس بهم، لم يكن لي سوى كاربي، استكثر زوجي وجودها واستكثرت أمي حزني لغيابها، فحتى مشاعر نوحي وآلمي لفقدي أهم كائن في حياتي لم يقدرها أحد، حين ذهبت إلى منزل أهلي غاضبة من زوجي، نظرت لي أمي وأخواتي بنظرة استياء وسخرية، كيف لي أن أترك منزل الزوجية من أجل سبب تافه كذلك

فقالت لي أمي:

_أنت يا بت عايزة تجنيني، انت سايبة بيت جوزك عشان القطة ماتت، معلش كان متعصب وقتها ويا سيتي يبقى يجبلك غيرها

جاوبها سريعاً أخي الصغير:

_ ماتصديقهاش ياما، هي عاملة الفيلم ده عشان عايزة تشتغل، وبتجيبها في القطة

استاءت من كلامهما، وقلت له

_ لا يا خالد الشغل مش مشكلة وانا مش بتلكك بالقطة، أنتوا لية مش قادرين تتخيلوا، إنسان قتل روح، هي دي حاجة قليلة عشان ارجع أعيش معاه، أنا مش قادرة أنسى منظر القطة وهي متكسرة لغاية ما ماتت

فقال أخي الأكبر رامي: أدي آخرة دلع البنات عايزة تسيب جوزها غشان قطة

نظرت لي أمي دون استيعاب لما قلته، وقالت لي:

- يعني لما الناس تقولي بنتك اتطلقت لية، اقولهم اية يا منى عشان حتت قطة لاقتها في الشارع

أدركت أن أمي لا تفهم ما أعانيه، لقد كان زوجي عصبي منذ تزوجنا وقد حاولت استيعابه، لكني لم أكن أعلم أن به من الوحشية ما يجعله يقتل قطتي البريئة، وكذلك كنت أعلم انه يغار منها لسبب لا أعلمه لكن أي وحشية تجعل الإنسان يفرغ غضبه وعدوانه على مخلوق صغير وضعيف لا يملك أن يدافع عن نفسه، كيف لي أن آمن على نفسي وأنا أنام بجواره، أخرجني صوت أمي من أفكاري حين قالت

_ أنا عارفة أن موضوع الخلفة مأثر عليكي، يمكن اتعلقتي بالقطة دي عشان ربنا مارزقكيش بعيال، بكره لما تخلفي هتنسي القطة دي وجوزك كمان هيهدأ من عصبيته دي

لا أجد أي رابط بين ما فعله زوجي وموضوع إنجابنا الذي تأخر، هذا لا يغفر له ما فعله في تلك الروح، غير ان بعض ما قالته أمي كان صحيحاً، إن جزء مني قد شعر بإحساس الأمومة مع هذه القطة التي كانت وليدة حين وجدتها وقد كبرت أمامي وهذا كله يزيد من بشاعة ما ارتكبه زوجي في نظري، حاول أمي وأخواتي تهدئتي وأتى عمرو إلى منزلنا وأظهر ندمه واعتذاره، في البداية اعتقد إني غاضبة بشأن مسألة عملي وكذلك أمي وأخواتي وكأن جريمة قتل القطة ليست سوى حجة لغضبي، فقال زوجي إنه موافق أن أعمل وحين أخبرته عن القطة، ابتسم في البداية ابتسامة أخبرتني كيف يرى الموضوع بسيط في نظره ثم وعدني بأنه سوف يحضر لي قطة أخرى، امتدحته أمي على عرضه ذلك ورأت فيه كرم منه عليّ واستيعاب لصغر عقلي وكأني فتاة صغيرة قد كسر لها دميتها، حزنت لأن لا أحد من حولي يستوعب ما أمر به، ما وجدته من معاملة أهلي جعلني أقبل بالعودة إلى زوجي.

أنتهى الفطور وقد نهض زوجي وجاء ليتناول الطعام معي، كنت صامتة لا أتحدث، حاول هو أن يفتح حديث معي

_ مالك قاعدة كدة مبوذة، هو انت احلويتي ولا أنا بيتهألي

صمت لم أجيبه، قد أعتقد زوجي أنه بهذه المجاملة سوف يجعلني أنسى ما حدث، أنسى انه أتركب جريمة لا يعاقب عليها المجتمع الذي نحيا فيه، الذي تطبع مع الوحشية وفوجدها طبيعية وأصبح من يرى قسوتها هو الغير الطبيعي

ثم سمعنا صوت جرس الباب يرن، ذهب زوجي لفتح الباب، لم أسمع سوى كلمة محضر، حينها حاولت ان أبدو طبيعية وأمثل أني أتناول إفطاري، لكني كنت أطعم نفسي بسرعة وعصبية تشئ بأني أحاول أن أخبئ شيئاً ما، نظر لي زوجي مذهولاً و هو يقول

_أنا مطلوب في القسم، حد عملي محضر جنح عشان قتلت قطة

حاولت أتجاهل النظر إليه وأنا أتناول طعامي ولكني شعرت بنظرات عينيه الغاضبة وغيظه مني، فزوجي مثل هذا المجتمع المحيط بي لا يرى فيما فعله جريمة، لكنه لا يعلم أنها جريمة يعاقب عليها القانون.

****

زوجي، والدتي، أخي رامي، جلسوا أمامي مجتمعين عبر كل واحد منهم على طريقته عن توتره، ظلت أمي تنظر إلى ساعة يدها وهي تزفر نفساً طويلاً محولة نظرها عني، أما زوجي فمنذ أستلم المحضر وهو يذهب ويجئ بعصبية في الشقة بعدما قرر أنه لن يتحدث الا في حضور اهلي حتى يعلموا ما فعلت، أما رامي فلم يحول نظره عني وهو يرميني بنظرة استياء، حتى كسرت أمي حاجز الصمت قائلة :

_ يعني لازم يابني تكون منى هي اللي قدمت اللي بلاغ ده، مش يمكن حد تاني

_ وهو مين شافني غيرها

أجابه رامي سريعاً

_ يمكن حد من الجيران مثلاً

لم يكن رامي مقتنعاً بما يقول وكذلك أمي ولكنهم كانوا يحاولوا تهدئة زوجي وكنت أنا أستمع إلى حديثهم صامتة وقد كان صمتي قرينة ضدي، لم أستطع أن أنفي وكذلك لم أستطع أن أؤكد، أنا مَن قدم البلاغ، عندما رجعت منزلي ولم أجد كاربي دفعني حزني واشتياقي لها إلى أخذ موقف، كلما وقفت في الشرفة تذكرت منظرها وهي ملقاه على الأرض والدماء حولها، كان الدم يغلي في عروقي، بحثت على الانترنت فوجدت أن قتل حيوان جريمة يعاقب عليها القانون، ذهبت إلى القسم أخبرت الضابط أنني اود الإبلاغ عن حادثة قتل، فاتسعت عيني الضابط وسأل باهتمام لكني اوضحت له أنها جريمة قتل قطة، فرأيت عيني الضابط تعود إلى حجمها الطبيعي، وتغيرت نبرة صوته المهتمة إلى فاترة ثم سألني بصوت رتيب

_ اتقتلت ازاي، حد سمها يعني

_ لا جوزي رماها من البلكونة وإحنا بنتخانق

_وانتي جاية تعملي محضر في جوزك

أجابته بثبات

_ أيوة

نظرة لي نظرة بها عتاب ولوم مثلما تنظر لي أمي وأخي الآن، حاول أن يفتح حوار ودي بيننا، إن كنت غاضبة من زوجي ولذا قررت تحرير محضر ضده، رقق صوته وحدثني بلهجة والدية أن أحل خلافاتي مع زوجي بعيداً عن الأقسام، لكني أوضحت له ان هناك جريمة حدثت ويجب اتخاذ موقف حيالها، نظر لي شزراً حين رآني مصرة على موقفي وبدأ يقوم بإجراءات المحضر وأعاد الخشونة إلى صوته ولم ينظر إلى عيني طوال تحرير المحضر ثم أخذت رقم المحضر وخرجت

****

أن تكون الشخص الوحيد الذي يرى الأمور بطريقة مختلفة، في حين لا يرى أي شخص آخر وجهة نظرك في الأمور، أحضر زوجي أهلي ليشهدهم على فعلتي، وقد اتفقوا معه كيف لي أن أقدم بلاغ في زوجي لقتله قطتي ماعدا واحد أحضره زوجي ليشهد عليّ لكنه كان في صفي وهو العم راتب خال زوجي والذي تولى شؤونه منذ وفاة والداه وهو رجل قد تجاوز الستين من عمره، يحيا بمفرده منذ أن توفت زوجته ولم يكن ينجب لذا أعتبر زوجي ابنه، حين قص زوجي عليه ما حدث صمت قليلاً وهو ينظر إليه من خلف عدسات نظارته الذي وضعهما على منتصف أنفه ويستند بكلتا يديه على عجازه ثم رفع حاجبه ومط نصف شفته العليا تعبيراً عن الاستياء وقال

_ عايز الحق.. مراتك عندها حق

صمت زوجي ونظر له مذهولاً وتبعه جميع الجالسين وقبل أن ينطبق بشيء تابع العم راتب حديثه:

_ أنا من وقت ما مراتي ماتت وأنا عايش لوحدي، لما اشتريت كلب، في الأول كنت تعبان منه ولأني مش متعود اخد بالي من حاجة، لكن يوم عن يوم حبيته واتعلقت بيه وبقى الكلب ده أغلى حاجة عندي

ثم أردف ساخراً

_حتى أغلى عندي منك أنت شخصياً

كتمت حينها ضحكة انتصار وكتم أخي ابتسامة سخرية

فقال له زوجي

_بس ماتوصلش أنها تبلغ فيا يعني، خلاص كنت أجيبها غيرها

رد عليه العم راتب

_ يعني أنت متضايق من المحضر اللي اتعمل ومش خايف من ربنا، انت ماتعرفش تعذيب حيوان وممكن يوصل لدخول النار ماسمعتش عن قصة الست اللي دخلت النار في قطة

احمرت عيناي زوجي وقال له بلهجة عاتبه

_خالي.. أنت كدة هتقويها عليا

_راجع نفسك يا عمرو يا بني، أنا قولت اللي عندي

ظل عمرو صامتاً ثم قال

_يعني المفروض أعمل اية دلوقت

نظر له رامي بنصف ابتسامة حاول إخفائها

_المفروض تدور لك على محامي

****

ذهبت للشهادة وذهب زوجي للنيابة برفقة محامي، كان حينها ينظر لي بغضب كأنه يود ضربي، لكن شهدت بما حدث، ثم حكمت المحكمة بستة أشهر مع وقف التنفيذ وغرامة مالية، لم نكن أنا وعمرو نحيا معاً حيث ذهب هو إلى خاله وأنا كنت عند والداتي التي ظلت ترميني بنظرات عتاب لكنها فقدت الأمل من الحديث معي، حاول خال زوجي الإصلاح بيننا، لكن يبدو أن عمرو شعر أنها طعنة له من جهتي، حاولت أنا أيضاً أن أتناسى ما حدث معي، وأن ما مر به عمرو كفيل لتغيره، لكن تُرى هل يتحول للأفضل أم سيصبح متوحشاً، فالرحمة لا تُخلق فجأة لذا عاودت طلبي في الطلاق.

الحكاية الثانية: الشك

أحد قصور مصر في فترة الخمسينيات تحيا به امراه جميلة في بداية الثلاثينات هي ثريا العلي أرملة حسناء وقد ورثت عن زوجها الثري قصرها هذا وتعيش به وحيدة منذ توفى زوجها ولديها خادمة واحدة في قصرها، ومنذ ثلاثة أيام علمت إنه قد أشترى أحد الباشوات القصر المجاور لها، لكنها لم تعلم هويته في البداية وفيما بعد علمت من خادمتها إنه يدعى توفيق أبو السعود، لم تصدق نفسها، هل يكون هو توفيق جارها القديم وحبها الأول، لذا أرسلت له خادمتها لتحمل له دعوتها أن يأتي ويتناول معها العشاء لكنه أعتذر في البداية، لم يهدأ بال ثريا حيث كانت تود أن تتأكد من هويته، حاولت أن تتلقي به صدفة عند خروجه من قصره أو عودته له، لكنها أيضاً لم تستطع، حتى في أحد الأيام ذهبت إلى أحد الحفلات وقد عرفته عليها أحد الهوانم هناك، نظرت له وتأملت هيئته جيداً، فقد ازداد وزنه، وأصبح يوجد مسحة حزن عميق في عينيه لم تكن به من قبل، تُرى ماذا يكون حدث له خلال خمسة عشرة عاماً، حينما تحدثت معه تحدث إليها باختصار شديد ثم غادر الحفلة سريعاً، لكنها على الأقل قد تأكدت أنه هو حبها الاول، فجددت عرضها له قبل أن يغادر الحفلة في أن يتناولان العشاء سوياً وبالفعل وافق لكنه غادر قبل أن يحدد معها موعد العشاء، والآن قررت إرسال خادمتها إلى قصره لتعرف رقم هاتفه من خادمه فعادت الخادمة ومعها رقم الهاتف، ابتهجت ثريا بعد ان اخذت الرقم، حيث أصبح يمكنها أن تهاتفه في أي يوم كي يتقابلا سوياً.

في تلك الفترة كانت ثريا تشعر بالوحدة الشديدة وظهور أي شخصية عرفتها في الماضي يمثل لها حدث شديد الأهمية، حيث كان الماضي هو ملاذ ثريا الآمن لثريا من وحدتها في قصرها، حيث كانت تحيا بين والديها وإخوتها حياة سعيدة ومرفهة، وتحب توفيق وتحلم أن تتزوج من هذا الصحفي الواعد وأن تكمل دراستها في الجامعة، لكن جميع أحلامها قد تحطمت حين حدث ما حدث مع والدتها، فهذه الفضيحة هي النقطة السوداء في ماضيها، ثم فكرت تُرى هل يحاول توفيق التهرب منها بسبب فضيحة والدتها القديمة.

****

في الأيام التالية أصبح هواية ثريا هي جمع المعلومات حول توفيق من خلال إحضار كافة الجرائد والمجلات التي يكتب فيها والتي كتبت عنه، وجدت إشاعات كثيرة حول قصص حب جمعت بينه وبين شخصيات نسائية من العالم الراقي لكن لم يتم تأكيد أي شيء، الشيء الوحيد المؤكد هو زواجه من الممثلة والراقصة الصاعدة نازلي وإنجابه منها طفله الوحيد لكن تلك النجمة الواعدة لم تبرق كثيراً في

سماء الفن، حيث سرق المرض عمرها وأخذها من أحضان زوجها وابنها حتى توفيت من عامين كانت هذه الأخبار التي جمعتها ثريا من الجرائد والمجلات، فكرت هل يكون سبب الحزن العميق في عيني توفيق تجربة مرض زوجته وموتها.

بعد مرور أيام قد اختفى توفيق من قصره، فأرسلت ثريا خادمتها إلى حارس قصره لكنه أخبرها إنه لا يعرف شيء سوى أن طفله مريض منذ فترة وقد وضعه السيد توفيق عند عمته لترعاه مع أبناءها وأنه ربما يكون ذهب إليها كي يطمئن على حالة ابنه.

****

_ فتحية.. فتحية

استيقظت فتحية الخادمة على صوت سيدتها ثريا هي تنادي عليها، فذهبت سريعاً إلى غرفتها، وجدتها جالسة على فراشها يبدو عليها الخوف من شيئاً ما لم تعلمه فتحية لكنها اعتادت أن تراها في هذه الحالة، فاقتربت منها واقترحت أن تقدم لها كوب من الليمون يساعد على تهدئة أعصاب سيدتها، فأذنت لها ثريا أن تفعل ما اقترحت، خرجت فتحية من الغرفة لتعد الليمون.

حاولت ثريا أثناء ذلك الاسترخاء لكنها لم تستطع، سيطرت عليها فكرة واحدة وهي أنها ربما تموت في هذه الليلة، شعرت إنه ربما يأتي الموت في أي دقيقة، ماذا ستفعل، هل بوسع الإنسان أن يفعل شيء حيال الموت، حاولت طرد هذه الأفكار من رأسها ولما لم تستطع ذلك، تذكرت الاجندة التي كتبت فيها رقم هاتف توفيق، ربما إذا تحدثت معه قليلاً يستطيع ذلك أن يصرف ذهنها عن الموت، أخرجت الرقم من الأجندة في الوقت الذي احضرت فيه فتحية كوب الليمون لسيدتها، لم تهتم به ثريا وفكرت فقط أنها تتمنى أن يجيبها توفيق، وبالفعل أجابها وقد سعدت جداً بذلك على الرغم من صوته الحزين الا أنه وافق أن يأتي إلى قصرها كي يتحادثا سوياً.

****

تأخر توفيق على موعده، فقامت ثريا بتشغيل أحد اسطوانات الأغاني الفرنسية التي تحبها ثم تأخر أكثر فأحضرت أحد روايات الأدب الروسي الذي كانت تفضل قراءاته، وأحياناً كانت تقرأ منه أجزاء بصوت عالي، فتسمعها آنذاك فتحية ولا تستطيع أن تفهم شيء مما تقروه أو تسمعه سيدتها وتبدو لها في هذه الأوقات كأحد المجاذيب.

لاحظت ثريا أن قد تأخر الوقت جداً، فأدركت أن توفيق لن يأتي، أحست بالمهانة كان يستطيع أن يعتذر لها على الأقل لكنه لم يفعل، فصعدت إلى غرفتها وعيناها دامعتان، حاولت فتحية التخفيف عنها لكن دون جدوى.

رغبت ثريا في أن تنام وتنسى ما حدث معها وبعد عدة محاولات نجحت في أن تنام ثم رأت نفسها في الحلم وهي جالسة تقرأ أحد روايات دوستويفسكي يحيط بها من كل جانب شموع كثيرة، ثم تسقط سهواً أحد هذه الشموع على طرف فستانها فتبدأ تحرقها وتبدأ هي في الصراخ.

تستيقظ أخيراً من نومها، تبحث عن الساعة فتجد أن الوقت قد تأخر فقد جاوزت الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل، تسمع من الشرفة صوت محرك سيارة فتذهب لتجد توفيق عائد إلى منزله، تنسى ما فعل معها اليوم وتنسى غضبها منه، لا تتذكر سوى أنها خائفة وترغب أن يأتي إليها، تتصل به

_ توفيق.. أنها أنا.. ثريا العلي، هل تذكرني لقد اتفقنا أن نتقابل اليوم

_ الوقت تأخر، ربما الغد

_ لا.. لا أستطيع أن أنام، أشعر إنني سأموت، أنا خائفة، أرجوك أحضر لي الآن

صمت طويلاً ثم وافق أن يأتي إليها، ذهبت فأخبرت فتحية أن السيد توفيق سيأتي، لم تستوعب لماذا يأتي في هذا الوقت المتأخر لكنها استعمت لأوامر سيدتها.

****

فتحت الخادمة الباب لتوفيق، فوجد ثريا آتية إليه، كانت قد رتبت شعرها ووضعت القليل من مساحيق التجميل مع أحمر شفاه فاتح، أما توفيق فكان وجهه كئيب وهيئته رثة على الرغم من أنه يرتدي بدلة تبدو غالية الا انه يبدو أنه لم يغيرها منذ فترة طويلة، رحبت به ثريا بوجه سعيد ومبتسم أما هو فظل منكس رأسه ووجهه متألم، لاحظت ذلك ثريا فبدأت حديثها بسؤاله.

_ أخبرني حارس منزلك أن ولدك مريض هو عند عمته الآن، هل تحسنت صحته

_ لا.. بل مات اليوم

صُدمت ثريا من رده، هل هذا سبب عدم مجيئه إليها، ويفسر ذلك علامات الحزن على وجهه حاولت أن تجد الكلمات المناسبة.

_ أعتذر.. لم أكن أعرف، رحمه الله، أتعلم أخبرني والدي أن الطفل الذي يموت صغيراً يكون شفيع لوالديه

_ وماذا إن لم أكن والده

زادت صدمة ثريا مما سمعته

_ ماذا تقول، أليس هو ابنك؟!

_ ثريا.. كيف استطاعتِ أن تغفري لوالدتك

بدأت تتنفس ثريا سريعاً وحاولت أن تمنع نفسها من أن يظهر عليها الغضب كالعادة حين يتكلم أحد عن والدتها بهذه الطريقة، وقالت بهدوء مصطنع

_ لماذا تفتح هذا الموضوع الآن ثم أن والدتي بريئة مما نُسب إليها

_ كيف بريئة وقد قتلها والدك بعد أن ضبطها مع صديقه في شقته

_ لا لا.. لقد أساء أبي الفهم، لقد كانت هناك والدتي لزيارة زوجة صديق أبي لكنها لم تكن تعرف أن زوجته قد غادرت المنزل

_ آه يا ثريا.. كيف لكِ أن تخدعي نفسك بهذه الطريقة، قد قتل والدك والدتك، هل تظنِ أنه سيقتلها إن لم يجدها في وضع مُخِل و قد براءته الشرطة من هذه التهمة لأنها قضية شرف

بدأ وجه ثريا يحتقن من الدماء، لكنها حاولت أن تبقى هادئة قدر الإمكان، فمنذ وفاة والدتها قد اعتادت مثل تلك الأقاويل

_ حتى إن أدانت المحكمة أمي، الإ أن قلبي متأكد من براءتها، إني حتى لستُ بحاجة إلى دليل مادي، أعرف إنه قد حدث لبس في الأمور عند أبي، لستُ أعرف ما سبب هذا اللبس، لكني متأكدة أن امي لا تفعلها، أنا متأكدة من ذلك

_ أنتِ محظوظة إذاً لأنك متأكدة، لأنك لم تجربي الشك

_ ماذا تقصد

_ حين توفت أمك، هاتفتني وقتها وقلتِ لي أنك رأيت منام، رأيت به حقيقة ما حدث مع والدتك وأن أبيكِ قد تسرع قبل أن يفهم الحقيقة

ظلت ثريا صامتة تحاول أن تتذكر ثم قالت

_ نعم لقد حدث ذلك

_ لكني حينها لم أخبرك، أن عقلك لم يستوعب الصدمة العاطفية الذي تعرض لها، فاختلق تلك القصة حتى يحافظ على صورة والدتك التي تحبها جداً

صمتت ثريا أمام كلامه وشعرت بدوار خفيف، فاستندت بجسدها إلى الأريكة، هل يمكن أن تكون الحقيقة التي صدقتها طوال تلك السنوات ليست الا كذبة من عقلها ليحافظ عليها، ثم تذكرت إنه عقب وفاة أمها قد أصر والدها أن يزوجها رجل أكبر منها بأكثر من اربعين عاماً، حيث أنه خاف ان لا يتزوجها احداً وقد دُفن شبابها معه حتى مات وورثت عنه هذا القصر، ثم أفاقت من أفكارها ونظرت إلى حبها الأول الذي لم يعد كذلك وسألته

_ توفيق.. لماذا أتيت الليلة بعد وفاة ابنك

ثم انتبهت ان توفيق لم يجلس منذ أتى إلى قصرها فعزمت عليه أن يجلس ونادت فتحية كي تحضر شيئاً ليشربه، جلس توفيق تأملته جيداً، يبدو أنه مغلوب على أمره وليس في وضع يسمح له أن يراوغها، أجاب سؤالها توفيق.

_ جئت لأسألك، كيف استطعتِ أن تحبِ أُمك، ماذا فعلتِ كلما شعرتِ بالشك في والدتكِ

حاولت ثريا أن تفهم ما يغزو إليه وما علاقة هذا بابنه ثم سألته

_ قلت لي أن ابنك، ربما لا يكون ابنك، ماذا تقصد، هل كنت تشك في نازلي

_ لا لم أشك في نازلي، لأنها اعترفت لي بخيانتها

اتسعت حدقة عين ثريا غير مصدقة ما تسمع وأدركت أن توفيق قد أتى إليها ليحكي ما لا يستطيع أن يقوله لأي احد كشخصية عامة، فأكملت قائلة

_ وماذا فعلت معها

_ لم أفعل شيء، لأنها كانت تحتضر، فقد أرادت أن أسامحها قبل أن تموت، كنت أرغب في أن أغضب، في أن أنتقم منها، لكنها كانت بالفعل في حالة يرثى لها، أخبرتني ثم أسلمت الروح قبل أن أستطيع أن أفعل أي شيء، لقد سرقت حقي في الغضب والانتقام منها

_ إذاً ما هو الشك الذي تحسدني إني لم أجربه إذا تأكدت منها أنها خائنة

_ لي الشك في ابني، منذ عامين وأنا أتساءل هل هو ابني فعلاً، أم ابن غريمي هذا الذي لا أعرفه ، لقد شككت في كل شيء، تذكرت كل ذكرياتي معه منذ وُلد، شعرت حينها أن نازلي قد سرقت مني هذه الذكريات، ف كلما تذكرت ذكرياتي مع ابني، أتذكر شكي في بنوته لي

قاطعت حديثنا فتحية، قد أتت ومعها كوب قهوة، تناوله توفيق وانصرفت فتحية، فأكملت حديثي إليه

_ لذا أودعت ابنك عند عمته، هل كانت تعرف هي الأخرى بشكوك

_ لا لم يكن أحد يعرف، لم أرضى، أن تنجرح كرامتي أمام أحد حتى أختي، اخبرتها إني لا أستطيع أن اهتم به وحدي، والحقيقة إنني لم أستطيع الحياة مع الشك، فكلما نظرت إلى وجهه، بدأ يساورني الشك، هل هو ابني، أم خديعة عمري

_ وهل كرهته

_ لا، لم أكرهه، لكني حين بدأت أشك أنه ابني، توقفت عن حبه، لكني لم أكرهه بالطبع، أنا فقط طلبت من قلبي أن يتأنى قليلاً

_ وكيف له أن يتأنى

_ كنت حين أرغب في احتضانه، امنع نفسي حتى أتأكد أن كان يستحق ان هذا الحضن أم لا وكلما تقرب إليّ صددته عني حتى أطمأن أنه ابني

_ وهل تأكدت إنه ابنك، وهل أطمأنت إنه ابنك

_ لا، لم أتأكد، لم يكن هناك وسيلة كي أتأكد، وكنت أخشى أن أبحث في الماضي حتى لا اجرح صورتي أمام احد، أو تتسرب الشائعات حولي وحول ابني

_ ثم ماذا

صمت توفيق قليلاً ثم تناول كوب القهوة وأفرغ ما تبقى فيه في جوفه وقال لثريا

_ ثم اكتشفت إني مغفل كبير ليس الا

_ لماذا تقول ذلك، هل اكتشفت أنه ليس ابنك

_ لا، بل قد اكتشفت إنه ابني، ابني الذي أحبه، لقد أضاعت من عمري وعمر صغيري عامين وأنا امنع عنه حبي واهتمامي وامنع عن نفسي ذلك القلب الصغير الذي أحبني كوالده، حتى اتأكد أنه ابني بالجسد، لقد وقف الشك في قلبي يمنعني من

أن أسمح لنفسي بحبه، حتى مات، مات فأدركت كم كنت أحبه، منذ شهر وأختي تحادثني أن آتي لأرى صغيري الذي تسوء حالته المرضية، وأنا أتهرب من رؤيته، لأني كنت أعلم أني سأضعف أمامه حتماً، حتى ذهبت اليوم لدفنه

بدأت عيناي ثريا تزرف الدموع عليه، فنظر إليها قائلاً

_ لا تبكي، من فضلك.. إني لا أستحق هذه الدموع، فأنا من أختار أن يبعد نفسه عنه، إن كان أحد يستحق هذه الدموع فهو ابني ليس أنا

نظرت ثريا حولها وهي تجفف دموعها، فوجدت أن الصباح قد أشرق، انتبه توفيق إلى ذلك فستأذن منها خارجاً وودعها بعد أن جاء ليحكي قصته مع الشك، أما هي فقد أثار كلام توفيق شكها في كل ذكرياتها مع والدتها وكأنها تكتشفها من جديد.

الحكاية الثالثة : كيف ترتكب جريمتك الأولى

مساحات شاسعة من الزُرقة، زُرقة السماء وتلك المنعكسة على البحر، تحيط بي من كل اتجاه، فالسماء فوقي والبحر يحملني، أفكار كثيرة في عقلي تتزاحم، لا تناسب هدوء المكان من حولي، ماذا سيحدث إن لم يجدني أحد، ماذا سأكل عندما ينتهي ما لدي من مؤون على المركب، بالتأكيد انهم يبحثون عني الآن، فأنا لستُ أي شخص، بل أنا ليلى عبد القادر، يتهافت الجميع من أجل آخذ موعد لدي، كتبي هي الأعلى مبيعاً، تُحادثني القنوات التليفزيونية من أجل إجراء الحوارات معي، وتحقق فيديوهاتي أعلى نسب مشاهدة على مواقع التواصل الاجتماعي، وامتلك ثروة مالية كبيرة، جمعتها بتعبي وشغلي على مدار سنوات في عملي ك " Life Coaching " مدربة حياتية، أقوم بمساعدة الأشخاص لتحقيق أهدافهم الشخصية، خاصة هؤلاء الذين يدفعون لي مبالغ طائلة في الجلسات، و الذين تخصصت فقط لمساعدتهم، ف بغيرهم لن أكون ثرية هذا الثراء الفاحش، أنهم المجرمون الذين عجزوا عن تخطي جرائمهم فآتوا إليّ، وكذلك جميع كتبي وفيديوهاتي أنها لمساعدتك كيف ترتكب جريمتك الأولى.

****

آه يا الله، ما كل هذا الهدوء المحيط بي، إنه لا يدفعني سوى إلى الجنون حتماً، لم يكن يجب أن أذهب في القارب بمفردي

_ لكنك لستِ بمفردك

نظرت خلفي لأعرف مَن يتحدث

في البداية لم أعرفها، بدت الرؤية مشوشة، دققت النظر إليها، شعر أبيض كثيف و جسم هرم، تُرى من تلك العجوز الجالسة أمامي

_ هل نسيتِ مَن أنا يا ليلى

هذا الصوت، هذا الصوت أعرفه، نعم كيف لي أن أنسى جريمتي الأولى

****

حسناً، فلنحكي الحكاية من البداية، إنني لستُ وضيعة، لستُ تربية شوارع بل بالعكس، أنا فتاة من عائلة تحت المتوسطة، تربيت على المبادئ والأخلاق منذ صغري، أهلي أُناساً عاديون، أدخلوني الجامعة حتى أصبحت طبيبة صيدلية، فتاة مهذبة يحبها الجميع، لكن ظروفي الاقتصادية كانت نوعاً ما صعبة لكن ليست سيئة

جداً، تخرجت وبدأت أعمل، لم أكن أتوقع ان تكون الحياة بتلك القسوة، وأن يكون المال عكس ما علمونا هو كل شيء، عملت في أحد الصيدليات، وكانت هناك مريضة أذهب إليها لأعطيها جرعات الدواء، السيدة فاتن علوي عجوز مسنة، سافر أولادها خارج بالبلاد وهي على علتها الجسدية كانت مصابة بالوحدة أيضاً، لذا كنت الشخص الذي يؤنس وحدتها وليس مَن يعالجها فقط، فقد تعمدت السيدة فاتن حين أذهب إليها أن تفتح معي أحاديث شتى، محاولة أن تزيد من وقتي معها وأحب الأحاديث إلي قلبها هي تلك التي كانت تقصها عليّ عن فترة شبابها، لم أكن أفعل شيء سوى الاستماع إليها باهتمام، يبدو أن ذلك لم يكن يحدث معها كثيراً، فربما الجميع من حولها سأم من حديثها المكرر، الذي لا يخص أحد غيرها، وقد كان للسيدة فاتن ابتسامة حلوة بالرغم من تجاعيد الزمن على وجهها إلا أنه كان هناك براءة طفولية في ملامحها، وهي تخبرني عن حبها الأول الذي لم تستطع الزواج منه، وكيف كانت فاتنة في شبابها، يرغب الكثير من الشباب وقتها في الزواج منها فهي سليلة الحسب والنسب وكيف أختار لها والداها زوج غني، انجبت منه ابنتان لكنهما تركتاها وسافرا وكيف أصبحت وحيدة الآن وكانت تعيد عليا هذه القصة كلما رأتني، تبدأ القصة ببداية سعيدة وهي شابة حسناء والعمر أمامها وتنتهي نهاية حزينة وهي إمراه عجوز تعاني الآم الوحدة والمرض، حتى تقربت منها كثيراً وعرضت عليّ أن اصبح مرافقة لها في منزلها بمقابل مجزي، ترددت في البداية لكني قبلت عرضها أخيراً، أصبحت قريبة منها جداً فحين يشيخ المرء يصبح قلبه في رقة الأطفال، ينجرح من أبسط الامور واصغرها ويسعد كذلك بأبسط الأمور، لذا كانت تُقدر لي أنني أستمع إليها، فهو الشيء الوحيد الذي يخفف من وطء وحدتها الشديدة وشعورها أنها امرأة وحيدة ومهملة في آخر أيامها وقد اشتاقت إلى ابنتاها كثيراً وفي قلبها غصة منهم، فقد كان قاسي جداً عليها أن تترك وحيدة هكذا، ربما ذلك السبب في قرارها الذي غير مجرى حياتي، فقد اوصت لي بنصيب من تركتها كبير عقب وفاتها

****

لم أكن أتوقع ذلك ولم أكن أعرف كيف ستكون حياتي عندما امتلك جزء من المال، لم أكن أعلم كم ستعطيني لكنها كانت كريمة معي كثيراً، فكرت حينها لن أضطر أن أعمل كثيراً بعد اليوم ولن أتذلل لأحد من أجل بضعة جنيهات، لكنها أخبرتني فيما بعد، أنها ستعطيني هذا القصر الذي تسكنه، صُدمت حقاً، لكن ماذا عن بناتك.. لن يوافقوا على ذلك، نظرت لي بحسرة وقالت

_ إن مُت الآن لن أجد واحدة منهن، فقط سيأتون ليحضروا جنازتي ثم تغادران ثانيةٍ، فقد هاجروا منذ سنوات وأصبحت حياتهن بالكامل خارج البلاد أما هذا القصر فسوف بيعهن بالتأكيد، وربما يُهد هذا المنزل كي يُبنى مكانه أحد أماكن التسوق، لا ارغب في ذلك، ارغب أن يحيا فيه أحد أحببته وأنتِ مَن أحبه

تأثرت كثيراً بحديثها، أخبرت خطيبي به، فقد حُلت مشكلتنا، سيكون هذا القصر بيتنا، لكنه شككني في كلامها، أهي جادة، ماذا عن بناتها، ربما تتراجع عنه.

ثم مر وقت، اكثر من عام، كنت نسيت وعدها لي واعتبرته مجرد فكرة خطرت ببالها، أصبحت وقتها حالتها الصحية سيئة جدا وكنت بجانبها حينها، جددت وعدها لي القديم بامتلاك هذا القصر، لم اصدق انها مازالت تذكره، لكن أشرف خطيبي اخبرني أن ابنتاها لن يتركاها تفعل ما تريد، لذا قررت أنسى ما قالته لي، لكنها لم تجعلني أنسى بل ظلت تلوح لي أنها سوف تنفذ ما وعدت، لم أدري لماذا فعلتِ هذا بي يا فاتن، كنتِ تتلاعبين بي، كل ما نسيت كلامك تذكريني بأنني سوف امتلك المنزل الذي أعمل فيه

نظرت لي فاتن نظرة طويلة لكني لم أعرف أن استخرج منها أي تعبير، كانت نظرة غامضة فأكملت

ربما لو تركتني أنسى لنسيت، لكنك لم تتركيني أنسى

حتى جاء ذلك اليوم الذي مرضت فيه فاتن كثيراً، وأنا كالعادة بجانبها اخبرتني أنها ستكتب وصيتها وسيكون القصر من نصيبي هذا ما قالته، تملكتني الأحلام حينها لم أستطع أن أقاوم أحلامي، بعدها سمعت صوتها وهي تتشاجر على الهاتف، لم أعرف مع مَن لكني حاولت التصنت عليها، استنتجت أنها تتشاجر مع إحدى ابنتها، حاولت استمع اكثر، سمعت اسمي، هل هذا الشجار من أجلي، ربما من أجل القصر، لم أجرؤ على سؤالها، لكني لاحظت تعكر مزاجها طوال اليوم، بعد مرور بضعة أيام تأكدت من وجود خلاف بين فاتن وبناتها، لكنها عادت وأكدت لي انها على موقفها مني والقصر لي.

جاءني خاطر حينها، ماذا لو رضخت فاتن لرغبة بناتها، لن آخذ القصر، تذكرت كلام أشرف، شرد ذهني في هذه الأفكار وأنا اعد الأدوية لها، كانت مريضة وتتألم، نعم مريضة وتذبل، لما أعطيها الدواء كي أطول من أيام بقاءها على الأرض، ايام عذابها، ذهبت إليها ومعي الدواء، ثم جاءتني فكرة ماذا لو لم اعطيها الادوية، فقد فقدت معظم الادوية فاعليتها، وكون الجسم مناعة منها، نفضت الفكرة عن خاطري، اعطيتها الدواء.

قاطعت فاتن حبل أفكاري قائلة

_ثم ماذا.. قررت قتلي

_ لا لا.. أنا لم أقتلك، انا كنت أحبك فاتن هل نسيتِ، كنت استمع إليكِ وكنت أقرب شخص لكِ، أردت فقط أن أريحك، اترك جسدك المريض يرحل بهدوء دون معاناة، ألا تذكري كم عانيتِ

هكذا كان تفكيري وقتها سوف أرحيها وأرتاح أنا معها، ثم أنها امراه عجوز، آكل المرض جسدها، والدواء لن يفديها، رحليها رحمة بها.

هكذا كنت أفكر، أنني لا أقتل، فالقتل يحدث فقط حين يكون هناك فرصة للحياة، أما لو كان الاختيار بين موت قريب وآخر بعيد، أليس الموت القريب رحمة، هذه هي أولى قواعد الجرائم التي تعلمتها أن تغير مسميات جريمتك حتى تستطيع أن تفعلها، لا يوجد مجرم على هذه الأرض يمسي الأشياء بمساميتها، عقلنا البشري لا يستطيع تحمل ذلك، لذا سميت قتلي لفاتن موت رحيم.

****

وبالفعل ماتت فاتن، لم أكن أعرف ماذا تحديداً السبب في موتها، هل هو قدرها المحتوم بعد أن فتك بها المرض، لقد طور جسدها مناعة من الدواء، لذا لن يهم أنها لم تكن تأخذه، لن يعرف أحد ذلك، كل هذه الأفكار لم تمنعني من الخوف والارتعاد أمام جثتها، شعرت أن هذا القصر قد أصبح كبير جدا، تركت جثتها في الغرقة وذهبت إلى الصالون، كومت جسدي على الأريكة ودفنت رأسي بين ارجلي، شعرت بالصقيع داخل جسدي، تمنيت أن يأتي أحدهم وينقذني من جريمتي وكأنني فجأة يُتمت، ثم رغبت في البكاء لكن لم أبكي.

****

احضرت الطبيب وكتب سبب الوفاة طبيعية ثم دفنت، حضرت ابنتاها سارة وانجيل عزاء والدتهم بصحبة ازواجهن وأولادهن ومثلما قالت فاتن، رغبن في إنهاء كل شيء ليعاودا السفر، انجيل صدقت روايتي ولم يكن لديها شكوك نحوي أما سارة فقد أتهمتني علناً، ظللت أدافع عن نفسي أمامها كيف لي أن اخون امراه في عمر والدتي، عيشت معها أكثر من عام كامل، احببتها واحببتني، ظللت أعيد كلامي كثيراً حتى صدقت نفسي، كل شيء كان طبيعياً، أنا لم أفعل شيء، موتها نتيجة حتمية بعد ان اضناها المرض، علمت وقتئذ إنه كلما أعادت كذبتك سوف تصدق نفسك، لو أن أحدهم وضعني على جهاز كشف الكذب لاكتشف صدقي، ليس هذا

فقط، بل حين كنت ألمح شبح اتهام في عيني سارة كنت أشعر بغصة في حلقي ليس لشعوري بالخوف بل بالظلم، رغم كون سارة كانت محقة في اتهامها لي وشكوكها ضدي كانت حقيقية لكنها لا تملك الدليل الا إني لكثرة ما قصصت عليها قصة مظلوميتي صدقتها أنا نفسي، هل رأيتِ يا فاتن كيف للإنسان قدرة على خداع نفسه؟!

صمتت فاتن صمتها المريب ونظرت إليّ طويلاً وقالت

_ ثم أقمتِ في منزلي كما كتبت في وصيتي لك وتزوجتِ به أيضاً وكأن شيئاً لم يكن

_ الأمر لم يكن بهذه البساطة يا فاتن

نعم عيشت في قصرك وتزوجت لكن ظل شبحك في عقلي يا فاتن، وجودي في منزلك، على سريرك كان يعيد إلي ذاكرتي ما حدث، أنا فتاة من عائلة يا فاتن ورباني أهلي تربية دينية ورعة، وأن كل فعل سيء سنحاسب عليه وندفع ثمنه، لذا انتظرت أن أدفع الثمن، حملت حينها في طفلي الأول لكنني أجهدت ثم حملت في طفلي الثاني وأجهدته أيضاً، لم يكن يعيش لي أطفال، وقتها اعتقدت ان هذه لعنتك، تابعت مع الأطباء لمعرفة سبب إجهاضي المتكرر لكني كنت أشعر أنك أنتِ السبب يا فاتن، لم أكن أحتمل تلك الحرب النفسية التي اشتعلت داخلي، لذا قررت أن أذهب إلى معالج نفسي

ابتسمت فاتن نص ابتسامة ساخرة وضاقت عينيها بمكر

نظرت لها وأنا اتفهم نظرتها لي وقلت

_ نعم ذهبت إلى معالج نفسي، كنتُ أرغب في أن أحيا حياة طبيعية، هل رأيتِ دناءة أكثر من ذلك، كنت أريد أن يريحني المعالج من عذاب ضميري، حتى أستطيع أن أستمتع بما أخذته منك، لم أكن أرغب في الندم أو التغيير فقط رغبت في إطفاء شعوري بالذنب، لم أستطع أن أمنح المعالج ثقتي لذا قررت أن أدرس أنا حتى أساعد نفسي وأبدأ رحلتي في قتل ضميري للأبد

****

لقد قبلت أن أكون من الأشرار، هؤلاء الأشرار الذين كنت أسمع عنهم في التلفاز وأقرأ عنهم في الأدب ويتحدثوا عنهم في العظات الدينية، الأشرار الذين حين نسمع عنهم نقول هم ونثني أنفسنا منهم، وقد عددت نفسي من ضمنهم، حينما تصنف

نفسك كشرير لا تشعر بالشعور الكلاسيكي بالذنب بل تشعر في أعماقك بالشفقة على نفسك، صوت داخلي عميق يخبرك أنك ضحية، حتى وإن كنت ضحية لذاتك ورغباتك، حيث يوجد في أعماق كل وغد إحساس دفين بالعجز، العجز عن تغيير ذاته وحياته لذا قد تغضب من نفسك أو من الحياة أو من الله نفسه حين يغمرك شعورك بالشفقة على الذات فتصبح ترى نفسك الجاني والضحية في آن واحد.

درست Life Coaching وبدأت مساعدة نفسي، حتى يستوعب العقل ما فعلته يجب أن تخفف من وطء الفعل، تغيير المسميات نقطة ضرورية جداً، دعنا نسمي الطمع طموح والنذالة نوع من الذكاء، استخدام الآخرين من أجل تحقيق أهدافك ذكاء اجتماعي، والقدرة على الإيذاء قوة شخصية، والجُبن حكمة والخِسة والخيانة واقعية، وهكذا حسب جريمتك، في حالتي اضطررت إلى إعادة صياغة احداث القصة في عقلي وأقنع نفسي أن ما فعلته معك هو لمساعدتك قبل مساعدتي، بدافع حبي لك وليس طمعي في منزلك، أما عن وسواس لعنتك، فقد أقنعت نفسي أن هذه كلها ليست سوى مجرد أفكار في عقلي، وليس لها تأثير عليّ في الواقع، لن يُحدث لي شيئاً قصاصاً لما فعلته معك، وبالفعل نجحت حتى حملت بطفلي وأنجبته، لذا فكرت أن استثمر نجاحي مع نفسي هذا مع غيري من المجرمين

****

حين بدأت عملي، لم أكن أتوقع نجاحي لكني بالفعل نجحت لذا قررت أن أتوسع واستهدف فئة بعينها وهم المجرمون المرهفون رجال الأعمال والقادة والسياسيون مَن يرتكبون جرائم ناعمة بقرار منهم، أو إمضاء منهم، مَن يمتلكوا قدر من الثقافة ورهافة الحس أما صغار المجرمون فإنهم ليسوا في حاجة لتجميل جرائمهم أمام عقولهم، يكفيهم فقرهم وما يحيطهم من عنف للتكيف مع جرمهم، كان هناك عدة الاستراتيجيات اتبعتها مع عملائي، البداية مثل ما اخبرتك هو تغيير مسميات الجريمة ومنحها أسماء أرق، تحمل معنى، ولم يكن ذلك صعباً حيث مَن كان يأتي إليّ يحمل في داخله تبرير لما فعل او لما ينوي أن يفعل ويطلب مسكن لضميره وما كان عليّ سوى تقديم أدلة منطقية تدعم تبريره، وكنت بارعة في ذلك، أما ثاني استراتيجية استخدمتها فهي العادة، شيء بسيط جداً لكن له مفعول السحر، نعم حتى الجرائم يمكن ان يعتاد المرء حتى القتل نفسه، في البداية ستشعر بوخز قليل في قلبك، سيؤلمك ضميرك، ستتذكر ما تربيت عليه من قيم، هذا في حالة كنت مثلي ومثل عملائي من المجرمون المرفهون لكن مع أول مرة تفعل جريمتك سيخفت هذا الصوت داخلك وهكذا حتى يصبح الأمر عادة، عندها لن تشعر بأي آسف وهناك ثالث استراتيجية واهمهم وهي عقيلة الضحية، إن كانت جرائمك لا

يمكن تجميلها، لا يوجد شيء أقوى من تفكيرك انك ضحية، ما تعرضت له من ظلم هو ما جعلك تُصبح ما عليه الآن، عندما يؤنبك ضميرك، تذكر ما حدث لك من مآسي وكم تعذبت، حينها تشفق على نفسك وتكمل جرائمك.

وقد نجحت نجاح كبير في عملي وحققت ثروة كبيرة وكتبت كتب أحدث الناس كيف يتخلصوا من ضمائرهم وقد نجحت، فالعالم المتلهف على المال والشهرة والنجاح انجحني وصفق لي وأنا أقدم له ما يُسهل عليه مهمته.

نظرت فاتن لي ذاك النظرة وقالت

_ وهل بهذه الطريقة يفقد الناس ضمائرهم للأبد

أجبتها

_ ليس كل الحالات، حسب ما يعتقد المرء، هناك حالات ظلت مصدقة أنه لا يمكن التخلص من ضمائرهم، لن يتخلصوا منها وهناك حالات أخرى صدقت ذلك ونجحوا لكن هل تظنِ يا فاتن أن من ظلت ضمائرهم حية قد تغيروا، لا.. حالات كثيرة لدي ظلت تشعر بذلك الوخز في ضميرها لكن لم يتغير سلوكها، أحدهم كان يقوم بعمليات نصب واحتيال وفي كل عملية يشعر بالذنب تجاه ضحيته تراوده أفكار ان لا يفعل ذلك، لكن حين يستلم نصيبه من المال ينسى الامر كُلياً، تخيلِ ذلك، حبه للمال كان أقوى من شعوره بالذنب ولم يكن على استعداد كي يتنازل عن نمط الحياة المرهفة الذي اعتادوا وطرق نصبوا الذي اعتاد عليها، مسكين حقاً.

أخذت فاتن نفس عميق ثم قالت وهي تنظر لي مباشرةً وأصبح في صوتها انفعال

_ لكن هذا ليس عدلاً، ألن تدفعوا ثمن ما فعلته

اجبتها

_ ومَن أخبرك أننا لا نفعل، لقد اعتادوا الناس على نهايات درامية للأشرار، تتضمن خسائر مادية واضحة لكن عالم الأشرار الحقيقي نادراً ما تحدث فيه مثل تلك النهايات، لكننا نخسر أن أنفسنا، بالرغم من كل ما نفعل لنتحايل على ضمائرنا نعرف حقاً مَن نحن ومع ذلك نحيا مع أنفسنا طوال الوقت.

_ رد سينمائي بامتياز، كيف ذلك وأنت مهنتك أنت تقضي على ما تبقى من صوت الحق في قلوب عملائك

_ سأخبرك قصة، كان يأتي لي شاب من أسرة ثرية، كَبر بين أبوين لم يكن لديهم وقت له، فأعطوه اموال كثيرة ونفذوا جميع طلباته حتى يتركهم وشأنهم، كبر صغيرهم وهو لا يشعر بمعنى لحياته، محاولاً أن يشبع جميع رغباته، وقد أدمن على الكحول مما جعلوا يرتكب جرائمه تحت تأثيره حيث قتل طفلتان وهو يقود سيارته تحت تأثير الكحل وكذلك تسبب بعاهة لشاب في بداية عمره، لكنه مع ذلك لم يكن يشعر بأي وخز في ضميره من أجل ضحايا بل كان على العكس يحتقرهم، همه الأول أن يبحث مع محاميه علي ثغرة قانونية كي لا يتحمل مسؤولية جريمته وقد نجح في ذلك، لكنه حتى يفعل ذلك قد قرر أن لا يشعر من الأساس حتى لا يرى مدى آثار جرائمه لأن وقتها لم يكن ليحتمل عذاب الضمير وكراهية النفس، لذا فضل احتقار ضحايا وقتل إحساسه بالآخر.

_ أهذا هو عقابه

_ مهلاً، لم تنتهي القصة حين قرر ان يتوقف عن التعاطف مع الآخرين فإنه سيفعل ذلك أيضاً مع نفسه وكي يفعل ذلك هو كان يجب ان يجد تبرير منطقي لذلك، فلهذا أقنع نفسه أن الحياة كلها بلا معنى، ولا تستحق بذل أي مجهود ولم يجد دافع كي يتعالج من إدمان الكحول، حتى تلف كبده ومع ذلك رفض العلاج واستهتر به حتى تلف جسده كله ثم مات.

نظرت إلي فاتن أمامي، لكني لم أجدها ثم وجدت فاتن أخرى بجانبي وأخرى تتمشى على القارب بعيداً وواحدة تقف بعيداً وتبتسم لي، لم أعرف أياً منهن فاتن، لكني سمعت من بعيد صوت قارب ورأيت على مرأى بصري أن هناك بعض أشخاص قادمين إليه، فشعرت أنه سيتم إنقاذي.

نظرت إلى الفواتن من حولي وابتسمت لهن وأنا أقول

_ فاتن، لن أستسلم لكِ، لقد قتلت قبل ذلك وسأقتلك الآن، أنني أعرف أنكِ لستِ سوى صوت في عقلي، ظهر لي لأني كنت وحيدة وخائفة على القارب، لكن الآن أنا لستُ خائفة، ولن أترك عقلي ينتصر عليّ، سأقتلك ثانياً في خيالي حتى يموت معك ما تبقى من ضميري.

الحكاية الرابعة : حكاية حياة

كان يومه الأول داخل المصحة النفسية عليه أن يقابل أولى الحالات الذي ستكون ضمن الحالات التي سيضمها الجانب العملي في رسالة الدكتوراه الخاصة.

قرأ ملف الحالات جيداً، وقع اختياره على تلك الحالة عينها فهي بها كل ما يريده .. لكنها معقدة ايضاً بالدرجة نفسها فالمريضة ترفض الحديث مع أي شخص لكن ربما لكونه عربياً مثلها سوف تتحدث إليه.

وقف أكرم أمام باب غرفة المريضة أخذ نفسا عميقا .. ثم تقدم وفتح الباب ودخل وجد المريضة أمامه .. كانت جالسة القرفصاء .. مثبتة عيناها على الحائط كأنها في حالة جمود، كان قد قرأ عن إل freeze الذي يحدث كرد فعل للأشخاص عند شعورهم أنهم في حالة خطر.

جلس على المقعد المجاور لها، فكر ملياً ماذا يقول .. شعر أن الصمت بدأ يطول .. كان يجب عليه أن يقول شيئا، فكر أن يعرف عن نفسه ويخبرها قد يستطيع أن يساعدها أو ربما يخبرها أنه مصري مثلها ويستطيع فهمها جيدا لأنهم نفس الثقافة ليس كالآخرين.

تنحنح مجددا .. شعر أن الحديث لا يخرج من فمه وأن الكلمات تتبعثر من فوق لسانه .. بعد عناء قال

_ أنا أكرم عادل .. أنا عارف حالتك وأن اللي مريتي بيه صعب ... أصعب حاجة ممكن تحصل لبنت هي حادثة اغتصاب جماعي .. أنا رسالة الدكتوراه بتاعتي عن الاغتصاب

تحدث باللهجة المصرية متعمداً ذلك حتى تعرف المريضة أنه مصري مثلها ..كان يأخذ نفسا عميقا بين الجملة والثانية وصوته فاتر جدا ربما بداخله كان هناك مشاعر تحتاجه لكن نبرة صوته روتينية جدا وعلى وتيرة واحدة و قبل أن يكمل حديثه، وجد المريضة تشيح بوجهها وتنظر إلى الجانب الآخر من الغرفة ثم فجأة دفنت وجهها تحت الوسادة وسمع صوت أنين يأتي منها.

ربما أخطأ في اختياره فالمريضة يبدو أنها تعاني الآماً حادة وليست جاهزة كما ظن، انتظر قليلا حتى تكف عن البكاء .. ثم طال انتظاره فكر أن يستدير ويخرج من الغرفة .. ثم قال لنفسه أن تلك المريضة هي أول تحدي له لا يجب أن يستسلم بتلك السهولة.

قال مرة أخرى :

-على فكرة دي مش نهاية الدنيا زي ما بعقلك بيخدعك .. رسالة الدكتوراه بتاعتي عن حياه البنات بعد الاغتصاب

توقفت عن البكاء ثم نظرت له بفتور ،كانت تلك المرة الأولى تنظر له منذ دخل الفرقة، شعر بالرضا في داخله .. يبدو أنه حرك بداخلها شيء

_ أنا هنا عشان أساعدك لو أنت عايزة تتجاوزي محنتك .. أو تستلمي لألمك وتبقى دي نهاية الدنيا زي ما عقلك بيقولك

نظرت له شزرا .. وجهت له نظرات حادة

شعر حينها أنها ربما غاضبة منه أو تشعر أنه لا يستطيع فهم ما مرت به

نظر في ملفها وبدأ يقرأ معلومات

-اسمك حياة عبد الفتاح ..مصرية وبتدرسي في جامعة ستانفورد، جيتي هنا من شهر .. كنتي رافضة الكلام تماما وحكيتي أنك اتعرضتي لاغتصاب جماعي وهددتي بالانتحار

كان يتلو المعلومات سريعا كأنه آلة .. فكأنه يرغب أن يذهب بالحديث لنقطة ما في عقله لكنه قبل ذلك وجد حياة تمسك بقبضة يديه وتضغط عليها بشدة وقالت:

- مش أنت مصري زي .. طب أنا عرفت إني حامل .. قولي أعمل أية .. الإجهاض ممنوع هنا .. أحتفظ بالطفل و أريبه طب هقول اية لأهلي في مصر لو عرفوا أن عندي طفل .. أنا بكرهه مش عايزة أبقى أم له .. قولي أعمل أية

كانت حياة تتكلم سريعا وتنظر له في عينيه مباشرة .. كانت تسأله ونظراتها تستجديه عطفا، فكر حينها ان يقول لها أجهضي نفسك .. فماذا ستفعل بطفل غير معروف أبوه كان هذا المصري الذي بداخله ولكن في الولايات يمكنها أن تتابع علاجها حتى تستطيع تقبل الطفل في حياتها .. ماذا عن أهلها في مصر .. هي فقط طالبة مصرية تدرس هنا وعليها الرجوع لمصر بعد انتهاء المنحة.

_ أهلك عارفين باللي حصلك

_ لا لا مستحيل أقولهم .. بابي يموت فيها

ما زالت حياة تقبض على يديه وكأنه المنقذ الذي يستطيع تغيير حياتها

كان صوته الداخلي يخبره أن الطفل يجب أن يجهض لكن لا يجب أن يفرض عليها أمرا بل يجب أن تقرر هي.

أجاب بفتور

_ أنا مقدر جداً الموقف وتعبك بس أنا ماقدرش اقولك تعملي أية. . أقدر بس اساعدك تاخدي قرارك ..انت اللي لازم تختاري

غضبت حياة بشدة صرخت به وهي ممسكة بيدية بعنف حاول أن يفك يدية من قبضتها لكنها كانت متمسكة بيه وصرخت به :

_ انت لية مش حاسس بيا .. انت بارد أوي وأنا بغلي

قبل ان يحاول ان يجيبها انهارت من جديد في البكاء، لم يعرف ماذا يفعل .. أتت إحدى الممرضات وحاولت تهدئتها .. هل يجب عليه ان يخبر المستشفى بأنها حبلى. أسئلة كثيرة كانت بذهنه في تلك اللحظة لكنه أختار المهنية في التعامل مع الموقف ولم يفشي بسر المريضة.

بعد ذلك جلس مع حياة جلستين، لم تكنا مثمرتين كما ظن .. ناقش معها احتمالات الاحتفاظ بالجنين أو اجهاض، ولاحظ أكثر من مرة أنها تلوح لمعرفة من هم مغتصبيها.. بل وتربطها معرفة وثيقة بينهم وأثناء الحديث قد أشارت إلى أنه شخص واحد وليس جماعة اعتدت عليها كما قالت. وأصبح يشعر أنها تخبئ شيء ما ثم فجأة اختفت حياة وقد هربت من المصحة وتابع هو حالات أخرى لإتمام لرسالته.

****

وبعد مرور عشر سنوات

اعتدلت شيري في جلستها يبدو عليها الضيق .. تنظر إلى الساعة في ضيق، تعلم إن زوجها سيحنث بوعوده لها وأنه سيأتي متأخرا كعادته، فقد كان تأخره في عمله دائما سبب خلاف بينهم حيث ترغب شيري في أن يقلل وقت عمله في العيادة ليقضي وقتا أطول مع أسرته .. أرتفع صوت شيري مخاطبة صديقتها المقربة رنا

_ قولتلك أنه أكيد هيتأخر زي عادته

_ جوزك بقى دكتور كبير وطبيعي يبقى مشغول

_ إحنا متفقين على الخروجة دي وأننا هنتقابل عندك انت وسعد هو قالي هاجي وأحصلك .. ماينفعش يتأخر كل ده

صوت قرع على الباب

_ تفتكري هو ؟

تنظر رنا من العين السحرية

_ لا دي بنت خالتي اللي قولتلك هاعرفك عليها

تفتح الباب للضيفة وتستقبلها في ترحاب شديد، يبدأ حديث ودي بين الأربعة رنا وزوجها سعد وصديقتهم شيري وابنة خالة رنا.

ثم يقرع الباب مجددا وإذا به أكرم زوج شيري يأتي حاملا أعذاره لزوجته الغضوب وصديقيهما سعد ورنا عن تأخيره ويبدأ الجميع في تبادل الأحاديث ..يرغب الجميع في التعرف على الشخصية الجديدة ابنة خالة رنا التي كانت صامتة معظم الوقت حتى عرفتهم رنا أنها تعمل في مجال التخاطب الأطفال.

قالت شيري

_ حكتلى عنك رنا .. قالتلي أنك متخصصة في المجال ده ودراستك في أمريكا

استرقت الضيفة النظر إلي أكرم وشعرت أنها رأته من قبل

قالت رنا

_ انت عارفة ان ابن شيري نادر عنده صعوبات تعلم وأنا قولتلهم أنك تقدري تساعديه

ابتسمت الضيفة

_ خليهم يجبوا عندي المركز في أي وقت

_ بصراحة في مشاكل كتير في المدرسة بسبب الموضوع ده وانت هتبقي أنقذتينا أضاف أكرم

تنبهت الضيفة إلى صوته .. كان مألوفا بالنسبة لها

سألته برقة مصطنعة عن عمله أجاب سعد نيابة عنه

_ أكرم عنده دكتوراه في ال psychology من أمريكا ودلوقت عنده عيادة وبيعالج

ابتسمت الضيفة في قلق، كانت قد تذكرته عرفته من صوته .. لكن هل تذكرها هو لم تكن تدري، بدأت تهز أرجلها في توتر، لاحظت أنهم قد ينتبهوا إلى توترها .. حاولت إخفاء قدميها التي فشلت في إيقافهما عن الاهتزاز.

نظرت إلى أكرم في عينيه

_ خلاص يا دكتور تقدر تعتبر موضوع ابنك منتهي .. أنا بنفسي اللي هديله الدروس

_ هكون شاكر جدا

تأكدت أن الجميع لم يلحظ شيئا .. وقد عرفت أن أكرم لم يتذكرها خاصة وأن رنا ذكرت اسمها عدة مرات أمامه ولم يتغير به شيئا

قالت حياة أخيرا:

_ قولهم في المركز أنك عايز حياة عبد الفتاح .. هي اللي تمسك حالة ابنك

****

حياة: عامل أية يا doctor

أكرم : أية حكاية دكتور دي اللي كل شوية تقوليها دي .. التعامل بينا المفروض أنه مابقاش رسمي زي الأول

مرت شهور على معرفة حياة بأسرة أكرم فقد كانت تصحبها رنا مع شيري زوجته للخروج والتسوق وأيضا ساعدت ابنه كثيرا في دراسته حتى أحبها وتعلق بها جدا وتقربت من الأسرة كلها باستثناء أكرم التي كانت دائما تخشى ملاقاته وتتجنب أي مناسبة تجمعها به غير أن اليوم حفل ميلاد ابنهم نادر الذي تعلق بها جدا وأصبح وجودها أمر مفروغ منه واضطرت لمقابلة أكرم وهي تحرص في كل مرة أن تتأكد لا يذكرها فتتنفس الصعداء

- "هو انت مش ناوية تتجوزي يا حياة .. هتفضلي تقضي حياتك كدة كلها سفر .. مش حابه يكون عندك أطفال "

كانت هذه جملة رنا

ابتسمت حياة في خجل واضطراب وقالت " نصيبي لسة مجاش "

وقع نظرها في تلك اللحظة على شيري وهي تطعم ابنها. . تخيلت لحظة لو أنها مكانها وتطعم طفلها دون إرادة من حياة تجمعت الدموع في عينيها .. استأذنت الجميع وذهبت إلى الحمام لتبكي سرا .. مر عشر دقائق أو ربع ساعة سمعت حياة من داخل الحمام صوت استغاثة وصراخ طفل، خرجت مذعورة ووجدت نادر وهو معلق على سور الشرفة ويداه بالكاد ممسكة بالسور وقدماه في الهواء.. بدأت تصرخ شيري، حاول الجميع سحب الصبي من يداه لكن إحدى قدميه قد علقت بأحد الأسلاك المعلقة بالخارج في الشرفة.. فكان يجب أن يتمشى أحدهم على السور الخارجي للشرفة ويفك قدم الصبي، للمفاجأة كانت حياة هي من فعلت ذلك تلقائيا تفاجأ الجميع من لياقتها وكيف استطاعت فك قدم الفتى ثم سحبه باقية الحضور ومن ثم سحباها هي .. لكن وهي تنزل سور الشرفة خانتها لياقتها وانزلقت قدماها راح الجميع يطمأنوا على الصبي ولم يهتم أحد بحياة حتى أفاقوا من الصدمة ووجدوا حياة جالسة على الأرض لا تستطيع الحركة، ذهبت شيري مسرعة تطمئن عليها وهي تشكرها لكنها تفاجأت من رد فعل حياة الغير المتوقع و قد صرخت بها بعنف

-"أنت ام مهملة .. أنت اللي زيك ماينفعش تبقى ام .. كنتي فين وابنك هيموت كدة"

صُدمت شيري من رد فعل حياة القوي ولم تكن تعلم أن حياة لا تقصدها بهذا الكلام بل هي تتحدث عن نفسها.

******

بدا أن قدم حياة كُسرت، أصبحت غير قادرة على المشي وكانت الاختيارات المتاحة قليلة أما أن ينقلوا حياة إلى المستشفى بعد أن يطلبوا لها " أوبر" أو ينقلوها إلى منزلها لكن منزل حياة بعيد وقد تأخر الوقت، أستقر الحال أخيرا أن يحضروا طبيبا لحياة يضع الجبس لقدمها ولتبيت في بيت أكرم وشيري هذه الليلة في غرفة الشاغرة في منزلهم ولتذهب غدا إلى بيتها .. تم إحضار الطبيب لها وأخذها إلى الغرفة الشاغرة، اعتذرت هي بدروها إلى شيري عما قالته لها وبالرغم من أن شيري كانت مذهولة مما حدث لكنها قررت أن تتغاضى عن الموقف وعن كلام حياة ، استعدت حياة كي تنام، لكنها سمعت صوت أكرم وشيري يتشاجران بسبب الذي حدث لابنهم، رغما عنها ذكرها ذلك بطفلها وشاجراها مع ايلي

_ ما بعرف كيف بتعتبري حالك أم يا حياة

_ ايلي .. أنت عارف أن عندي ظروف خاصة

_ اعترفي بالولد يا حياة .. أكيد راح ينصدموا شوي بس بالأخير هادا حفيدهن

_ أنت عشان قضيت نص حياتك في أمريكا، نسيت العرب بيفكروا إزاي

_ بس هيك ما بيمشي الحال .. الولد مشتت كل شوي بتتريكه عند حدا من صحابك وبعدين .. تعرفي بلكي أفضل شيء أنك تعطيه لأبوه طالما مش قادرة تهتمي فيه

_ إيلي .. أوعى أسمعك تقول كدة تاني .. تامر مالوش وجود في حياتي او حياة إبني

_ تامر خرج من المصحة وكلمني كان بدو يعرف وين ابنه

_ مش عايزاه يعرف حاجة عني او عن ابنه

يُسمع صوت دقات على الباب

كان الضيف تامر وقد أتفق مع إيلي ان يدبر لقاء يجمعه بحياة ، يتغير وجه حياة كليا ويعتريها نوبة من الغضب بمجرد رؤيته تتذكر حبها الكبير له وكيف أغتصبها في تلك الليلة اللعينة ثم عرفت بعد ذلك أنه كان تحت تأثير المخدرات وأنه مدمن حينما عرف بحملها رفض الاعتراف بالطفل، دخلت حياة وقتها المصحة النفسية ثم قررت الهروب والاحتفاظ بالطفل وتربيه بمفردها وبعد هذا كله يطلب ابنه

تامر : فين ابني يا حياة .. دورت عليه كتير

حياة : ابنك مات

تامر : أنا اتغيرت يا حياة واتعالجت ..أنا..

حياة : مانت ياما اتعالجت قبل كدة ورجعت تاني

تامر : انت سفرتيه فين .. هو أكيد مش في مصر .. إيلي مش راضي يقولي غير لو وافقتي أعرف

حياة : ابنك مات .. اعتبره مات

****

استيقظت حياة في اليوم التالي وجدت رسالتين من إيلي الأولى يخبرها فيها أن تامر أخبره أنه سيسترد ابنه بأي ثمن والثانية أخبرها فيها ان ابنها قد دخل المستشفى ثانية بعد ان تدهورت حالته، تذكرت حياة حقيقة مرض ابنها التي كانت

تحاول نسيانها، لم تستطع حياة أن تغفر لنفسها أنها اهملت أبنها ولم تهتم بالأعراض التي ظهرت عليه بحجة ان كل الأطفال يمرضون .. لم تكن تعلم ان مرضه خبيث .. لم تكن تعلم أنها ستتوقع موته في كل لحظة .. هي لم تكن تريده من البداية لكن لما الآن يجب ان يموت بعد ان كبر أمام عينيها .. ظلت تلك الأفكار تراودها لم تشعر أن دموعها تنهمر على وجنتيها سمعت صوت طرقات على الباب وكان الطارق شيري تريد إيقاظها، خرجت من غرفتها بمساعدة شيري وقد لاحظت أن عيناها متورمتان وكأنها كانت تبكي الليل كله حينما سألتها عن السبب، أنكرت حياة الأمر أخبرتها أنها لم تنم جيدا، أستيقظ الصغير وقد تعلق بحياة بشدة وأصر على امه أن تبقي حياة في البيت حتى تطيب قدمها وعرضت شيري بالفعل ذلك عليها لكنها رفضت فقد كان بالها مشغول مع ولدها .. أخبرتها شيري أنهم سيدعونها تذهب عقب تناول الطعام معهم.

ذهبت شيري لإعداد الطعام بقيت هي وحيدة مع الصغير .. كان لدى الصغير حوض صغير للأسماك يحبه كثيرا .. طلب من حياة النظر إلى سمكاته واللعب معهم تذكرت عندئذ طفلها حينما كانا على الشاطئ

_ مامي ..هو الراجل اللي هناك لابس كدة لية ؟

_ He is going to dive under the water

_ أنا كمان حابب اعمل diving زيه

_ لية

_ عشان أشوف السمك تحت المياه

_ وهتقدر تلبس ال diving tube

_ لا .. مش هابقى محتاجها. . لما هنزل تحت المياة هيطلعلي خياشيم زي السمك وهعيش هناك forever

_ وتسيبني لوحدي

_ نطي في المياه وتعالي عيشي معايا

تذكرت ذلك حياة ثم انفجرت في البكاء المرير .. كان من الصعب إخفاء ذلك على شيري .. سألتها شيري مرة ثانية ما الأمر

كان يجب أن تجد حياة إجابة مقنعة

_ أصل أنا كنت بحب حد و لما فتحت الفيسبوك دلوقت عرفت انه ارتبط بواحدة تانية وسبني

أصبحت شيري في حالة ذهول من هو هذا الشخص.. لما لم تخبرهم بيه من قبل ولماذا تركها لكنها رأت أن صديقتها آثرت الصمت على الحديث فصمتت هي الأخرى وأظهرت الأسف لمعاناتها، تناولت حياة الطعام ثم ذهبت إلى منزلها ب "أوبر"

****

مرت ثلاثة أشهر الآن .. كانت حياة تتهرب من الجميع تعتذر عن مقابلة شيري ورنا بالإضافة إلى تقصيرها في عملها حتى لاحظت شيري ان ابنها أصبح لا يحرز تقدم

دعت شيري وأكرم حياة وباقي الأصدقاء في نزة قصيرة على إحدى اليخت المملوكة لأحد الأصدقاء .. لبت حياة الدعوة على مضض بعد أن استنفذت جميع الحجج والأعذار. . كان ما يشغل بال حياة فعلا طيلة تلك الفترة المضطربة من حياتها هو ابنها فقد اضطرت إلى إخبار تامر بمكان وجود ابنه في إحدى المستشفيات في نيويورك وصرحت له بحقيقة مرضه وذلك بعد أن هددها ان يبلغ أهلها ان لها طفل يعيش في الخارج .. كانت تعلم ان أيام أبنها قليلة في الحياة وكانت تود في إيجاد حجة لإقناع أهلها بالسفر لكنها لم تفلح.

اجتمع الأصدقاء معاً على اليخت .. لاحظت شيري أن حياة لا تتحدث، حاولت فتح الأحاديث معها لكنها لم تستجب

كانت حياة تشعر بغصة في قلبها نظرت ناحية أكرم وقالت له

_ على فكرة احنا اتقابلنا زمان يا دكتور

_ زمان إمتي

_ من عشر سنين .. لما كنا في أمريكا

_ فعلا ؟

_ ليك حق ماتفتكرنيش .. أنا كنت أول حالة تشوفها

_ أنت كنتي حالة عندي

_ مش في العيادة .. بس لما كنت بتعمل رسالة الدكتوراه بتاعتك

تغير وجه أكرم .. نظر مليا إلى حياة .. كان يتذكر الحالة جيدا وقصتها لكن ملامح تلك الفتاه واسمها لا يذكرهما

_ انتى ..

لم يستطع اكمال الجملة .. هل كان يجب عليه ان يخبر قصتها .. فجميع الأصدقاء لا يعلمون ما حدث لها

صمتت حياة قليلا ثم قالت

_ كان مثير جدا بالنسبة لي إني أشوفك وأنت إنسان عادي بتمارس حياتك الطبيعية مش وانت صوت العقل

صمت أكرم لكن الفضول كان يقتله ماذا حدث معها .. يبدو أنها اجهضت الجنين

لم تتحدث حياة ثانية حتى أتتها رسالة من تامر

بعدها ارتسمت على وجه حياة ملامح الصدمة .. لاحظ الجميع ما بها ظلوا يحدثوها لكنها لم ترد .. أصبحت عيناها تائهة ثم قامت من بينهم فجأة وتحركت بحركة شيه آليه والجميع يراقبها بذهول ثم ألقت نفسها في الماء.

****

طلبت شيري من أكرم ان تزور حياة في المصحة النفسية بعد محاولاتها للانتحار .. كان المشرف على حالة حياة زميل أكرم فساعده على ذلك دخلت شيري الغرفة وحياة في حالة جمود ووجهها بلا انفعالات تقريباً، لم تعرف ماذا تقول .. ظلت صامتة أمام حياة .. ظنت ان هناك شيء يجب ان يقال لكن لم تعرف ما هو حتى فاجأتها حياة بقولها

_ أنا عارفة أنك بتحتقريني

سارعت شيري بالرد عليها

_ مش صحيح

_ أنا عارفة إني عيشت معاكوا بشخصية تانية .. عارفة إني كنت بحكيلك مشاكل مش موجودة بس أنا كنت بعمل كدة عشان أحمي ابني

شعرت شيري أنه يجب أن تقول شيئاً ما لكنها لم تعرف ماذا تقول ف صمتت متحيرة، وأكملت حياة

_ تعرفي يا شيري .. أية أكتر حاجة متضايقني مش أن ابني مات بس لأنه اتعذب قبل ما يموت .. أنا قبلت فكرة موته بس مش قادرة أقبل كان بيتعذب قبل ما يموت .. كان نفسي في موت رحيم له

حنيها دمعت شيري وأدركت مدى حزن صديقتها وحاولت أن تقول جمل من هنا وهناك لمواساة صديقتها لكن حياة لم تكن تسمعها إليها ثم طلبت منها طلب غريب

_ شيري هديكي رقم تامر قوليله إني مش عايزة ابني يتدفن عادي. . أنا عايزة يدفن في المياه

دهشت شيري من طلب حياة ولكن وعدتها بتنفيذه

لم تكن تعلم شيري ان ابن حياة كان مصاب بسرطان الرئة وأن حياة تتذكر كلماته .. لما هنزل تحت المياه هيطلعلي خياشيم زي السمك وهعيش هناك forever ، كانت حياة في تلك اللحظة مؤمنة ان ابنها سيتحول سمكة ويطلعله خياشيم يعيش تحت الماء ، كانت تنظر إلى اي مجرى مائي وتعتقد ان ابنها يحيا هناك للأبد .

أشرق صباح نهار يوم جديد، سمعت صوت منبهي يخترق آذاني، أذعنت طائعة له، محاولة فتح عيناي وكالعادة شعرت بشيء ثقيل خفي أحمله فوق صدري، قاومت بقايا النوم في عيني واستيقظت، بدأت ارتداء ملابسي كي أذهب إلى عملي، وقفت أمام المرآة لأضبط هندامي، كنت مازالت أشعر بذلك الشيء الثقيل الخفي الذي فوق صدري، وضعت يداي على صدري لأتحسس ماذا فوق ثدياي يشعرني بهذا الثقل، في البداية لم اجد شيء، فضغطت أكثر على صدري وبدأت أشعر بشيء حاد يؤلمني، لم أكن أعرف ما هو.

فحاولت ان أتعرف عليه وأنا أسحبه من صدري، وإذ بي أجد سن يشبه سن السكين، ظللت أسحبه من صدري، فرأيت سكين كامل يسكن صدري، حاولت مراراً وتكراراً أن أخرجه لكني لم أستطع، نظرت إلى الساعة في هاتفي، فوجدت أني تأخرت على عملي، فتركت السكين محلها، مدركة أنه لا سبيل لإخراجها، أقفلت أزرار قميصي كي أخفيها عن الأعين ومن ثم ارتديت السترة الخاصة بي وخرجت من بيتي متجهة إلى مكان عملي.

****

حين خرجت من أمام منزلي، اتجهت إلى الشارع الرئيسي مسرعة لا أفكر سوى في الوصول إلى الرصيف المقابل، لم أتكمن حينها من سماع صوت صافرة الحافلة خلفي، حتى التفت فوجدتها خلفي تماماً، إذ لم يكن يفصل بيني و بينها الا بضعة سنتيمترات قليلة.

****

لكن استطاع سائق الحافلة أن يتفادى الاصطدام بي في الثواني الاخيرة، حاولت أن التقط انفاسي حتى اتمكن من استيعاب الحادث، فحصت نفسي أبدو جيدة، ثم واصلت المشي إلى الرصيف الآخر وأخذت سيارتي واتجهت إلى مكان عملي.

****

دخلت العمارة التي بها المكتب الذي أعمل فيه، ذهبت باتجاه المصعد وركبته، كانت الامور تسير بشكل طبيعي إلى حد ما، وجدت هاتفي يهتز بشكل مفاجئ، نظرت فيه ولم أجد رسالة ما عكس ما توقعت ولكن حين وقع نظري على التقويم رأيت تاريخ اليوم ومكتوب من تحته أنه اليوم الموافق لذكرى وفاتي، لم أصدق ما رأيت، حاولت أن أنظر ثانيةٍ، وإذ بي فجأة اتقلب على وجهي، صرخت

بأعلى صوتي وزادت ضربات قلبي إلى أقصاها، وشعرت بالجفاف في حلقي حتى سمعت هناك صوت يأتي من الأسفل

_متخافيش يا أستاذة، هنعرف نطلعلك من الاسانسير

كان صوت حارس العقار، حاولت الاستناد إلى أحد جدران المصعد، تذكرت ما رأيت في التقويم، هل سأموت هنا، داخل هذا المكان الصغير الضيق، مختنقة بنقص الأكسجين، هل اليوم سيكون ذكرى وفاتي حقاً

لم أجد ما يخرجني من أفكاري سوى صوت حارس العقار وهو يخرجني من داخل المصعد ويقول

_انكتبلك عمر جديد يا استاذة، الاسانسير كان هايقع

****

خرجت من المصعد، وأنا احاول تنظيم تنفسي، لقد كنت على بُعد ثوان من الموت، دخلت إلى المكتب بعد محاولة تهدئة نفسي، ظننت أن كل ما مررت به لم يكن سوى كابوس وانتهى، وان ما رأيت على هاتفي ليس سوى هلاوس بصرية نتيجة رعبي وأنا داخل المصعد.

جلست على مكتبي وطلبت قهوتي الصباحية المعتادة، وبدأت العمل رن جرس هاتفي، نظرت إليه فوجدت المعمل الذي ذهبت إليه منذ أسبوع يتصل، بالتأكيد سوف يبلغني بنتيجة التحليل، أجابت على الهاتف، اخبرتني الفتاة التي أجابتني بصوت جاد، أنها آسفة أن تخبرني أنهم وجدوا في تحاليل التي قمت بها إني مصابة بأحد الأورام الخبيثة، صمت ثوان من الصدمة، ثم أغلقت الهاتف وحاولت الاتصال بطبيبي وأنا أبحث عن اسمه رأيت أسفل تقويم هاتفي ان اليوم سيوافق ذكرى وفاتي.

****

لم أستطع ان أتمالك أعصابي إنه الموت، الموت الذي يلاحقني منذ الصباح، زاد توتري جداً، كيف لي أن أهرب من الموت، لم أكن في حالة جيدة لأعمل لذا فكرت أن أترك العمل مبكراً اليوم، لم اتعب في تصنع الحجج، حيث كان وجهي المتيبس من الخوف وأنفاسي المتلاحقة تعبر عن حالتي الحرجة لذا أذن لي المدير أن أذهب مبكراً هذا اليوم، خرجت مسرعة وأنا أحاول أن أتفادى الموت الذي ربما أجده في طريقي، كنت أمشي في الطريق وأنا اتلفت حولي من أين سيأتي الموت،

وقعت عيني على أحد لافتات المطاعم التي كنت أتردد عليها، ربما طعامها غير صالح للأكل، ربما يبيعوا اللحم الفاسد، لن آكل منه ثانيةٍ، فربما يكون هذا سبب موتي، أخرجت مفاتيح سيارتي ونظرت لها، ربما وأنا أقود السيارة أشرد قليلاً فيما يحدث معي ودون أن انتبه تنقلب بي السيارة وأموت في حادثة سير بينما أنا أفكر كيف أتفادى الموت.

لا لا لن أركب سيارتي اليوم، سأركب بدلاً عن ذلك وسيلة نقل عامة

أخيراً عُدت إلى بيتي، أغلقت الابواب جيداً، ربما يأتي أحد اللصوص ويسرقني ثم يقتلني، فأموت مقتولة، لا أدري ماذا سيحدث معي

مضى من الوقت ساعتين، أنا ما زلت بخير، لا شيء بي سوى هذا الورم الذي وجده، نظرت إلى نفسي في المرآه، محاولة تخيل ماذا سيُحدث هذا الورم في جسدي الضعيف، سيدمر عمل أجهزة جسدي الداخلية، هل سأحتاج لإجراء أحد العمليات لقص جزء من جسدي كي يتنجح الباقي في العيش، هل سأحتاج لأخذ جرعات كيمائية كي أحارب المرض لأنجو لكن بعد أن يهمد جسدي تماماً، يا الله ما هذه الأفكار.

على صوت رنين هاتفي، وجدت المتصل خطيبي أحمد، بالتأكيد يرغب في الاطمئنان علي، لأني تركت العمل مبكراً، أجابت على اتصاله أخبرني إنه يريد أن يلقاني حتى يطمئن علي، لكن كيف، هل أخرج من المنزل، ملاذي الآمن، بعض تفكير لدقائق وافقت على طلبه، ثم اتفقنا أن نخرج سوياً اليوم.

****

خرجت معه بينما كنا معاً سوياً كنت أنظر إلى الطريق من كل جانب لربما نصطدم بأحد الشاحنات المارة، اسمعني حينها حديثاً رومانسياً لكنني لم انتبه، كنت شاردة في الخبر الذي ستنشره الجرائد في صفحة الحوادث عن مصرع خطيبين في حادثة على الطريق، أو ما سوف ينشره الاصدقاء على صفحاتنا على الفيسبوك لنعينا، أخيراً وصلنا إلى احد المطاعم التي أختارها خطيبي، جلسنا سوياً في انتظار أن يأتي الطعام، سمعت جلبة لم أفهم سببها ثم نظرت خلفي فوجدت أحد الضباط يقف، لم أفهم سبب مجيئه وسبب انهيار وخوف جميع الموجودين في المطعم، حتى عرفت ان المكان به قنبلة تركها أحد الإرهابيين في المكان السياحي هذا، الجميع خائف ومرتعد، نظرت أنا إلى أحمد، اقتربت منه وحضني حتى يحميني مما يحدث، حاولت تهدئة نفسي، تمسكت جيداً وخبأت نفسي داخلة معطفه، ونظرت إلى عينيه

ابتسم لي كي اطمئن وأدخل يديه في قميصه، لم أفهم ماذا يفعل حتى رأيت المسدس الذي أخرجه ودون أن يشعر أحد بسبب الجلبة في مكان صوب مسدسه نحو رأسي.

****

لا لن اخرج مع أحمد، اعتذرت له، ربما لم يحبني أحمد يوماً، لماذا يريد الزواج مني، ربما زواجنا سوف أجد فيه حتفي، ربما يقلتني أحمد، يقتلني ببرودة معي، او يقتلني بخيانته لي مع إحداهن، ربما يقتلني حين يسجنني في المنزل أو يحرمني من عملي او يقوم بتعنيفي او يؤذيني أحد من أهله، والدته لا تحبني، أبيه صارم، أو ربما أموت حين ألد طفلنا الأول، أو افقد أنا أحد أطفالي فأحيا في تعاسة أو ربما اكتشف اني لا أنجب، لا لا، يبدو أن الزواج ليس آمن على الإطلاق، سوف أُنهي علاقتي بيه فوراً.

****

سمعت قرع على باب منزلي متزامناً مع رسالة على الهاتف من صدقيتي، تخبرني أنها أمام منزلي، جاءت من أجل الاطمئنان علي، لأني ذهبت مبكراً من العمل، فتحت الباب، وجدت رغد صديقتي المقربة، جاءت حاملة معها طعام من أجلي قائلة

_ أكيد كالعادة نسيتي تاكلي حاجة طول اليوم وعلى لحم بطنك، جيبلك الاكل اللي بتحبيه

نظرت لها، كنت بحاجة إلى وجود صديقتي المقربة بجواري، كما كنت بحاجة الطعام، بدأنا ناكل سوياً رغبت في ان أخبرها كل شيء حدث معي وماذا أرى في تقويم هاتفي

_رغد.. في حاجة غريبة حصلت معايا، انا شوفت ان النهاردة هيكون اليوم اللي هموت فيه

اتسعت حدقة عيناها غير مصدقة

_بتقولي إية، ازاي الكلام ده، يعني شوفتي فين ده

_ في الموبايل بتاعي، استني هوريكي

ذهبت لإحضار الهاتف وفتحت التقويم وأعطته لها وقلت

_مكتوب إني هموت النهاردة، النهاردة هايبقى ذكرى وفاتي، شوفي كدة

أجابت بمنتهى الثبات ونظرات عينيها مثبتة عليا

_ مانتي، هتموتي النهاردة

ذُعرت، ماذا حدث، لماذا تخبرني رغد بهذا التأكيد إني سأموت اليوم، اكملت حديثها

_ عشان حطيتلك سم في الاكل اللي جيبتهولك

انهارت تماماً، كيف لرغد ان تفعل هذا بي وهي صديقتي المقربة، كيف تؤذيني هكذا، رأيت ابتسامة شماتة على وجهها، هل كانت تغار مني لأني تريقت في عملي قبلها أو لان احمد اختارني أنا وخطبي وهي لا، هل كانت تحب أحمد، هل هما على علاقة، هل خانني أحمد معها، قبل ان أطرح كل هذه الأسئلة، شعرت أن مفعول السم بدأ يظهر علي، فشعرت بخوار وبألآم في معدتي، هل سأموت بهذه الطريقة في النهاية وعلى يد صديقتي المقربة.

****

لا لن افتح الباب لها، سأخبرها بأني مريضة ولست قادرة ان استضيف احد في بيتي، لعلها تذهب وبالفعل ذهبت، فتنفست الصعداء.

****

بقيت وحيدة، لم أخرج من منزلي لأيام وفي كل يوم، كنت أرى في التقويم إنه الذكرى الموافقة لوفاتي، الموت يحاوطني في كل جانب، أين لي أن أهرب من الموت، و إلى متى سأهرب، إنني أحارب عدو أعلم أنه سيربحني في النهاية، فما الداعي لهذه الحرب إذن.

السكين، إنه ما يزال داخل قلبي، قلبي الذي يأن ويتألم خاصة حين يأتي المساء فأشعر أن ثِقل الحياة كله يحمله صدري المسكين، لا أحد يستطيع أن ينجدني، أرى أحبائي من بعيد، تخبرني أعينهم أنهم يريدون مساعدتي، لكن مَن له سلطان على موت، إننا نموت قبل أن نموت، نموت بخيانة صديق أو حبيب، نموت بخسارة او فقد، يموت كل يوم جسدنا ويكبر حتى يموت فعلياً

استمع الطبيب لكلماتي بصمت وهو يشخص لي، ثم كتب لي وصفته الطبية وطلب ملقاتي بعد شهر

خرجت من عنده وأنا أفكر في كلامه لي حيث شخصني أني مريضة وسواس قهري وسواس الموت مما أدى إلى اكتئاب وأيضاً لدي اضطراب قلق عام

وأخبرني أيضاً أنه قد يكون سبب مرضي وراثي حيث لدي تاريخ مرضي في عائلتي، إذن فقد وُلدت ولدي استعداد أن أرى الحياة من جانبها السوداوي أكثر من غيري وإن عيناي ترى الألم أكثر ما ترى السعادة وقلبي يميل للحزن اكثر من الفرح، هذه أنا.

ذهبت الى منزلي وتناولت دوائي، حاولت تطبيق تقنية التنفس، استلقيت على فراشي وبدأت أتنفس بوعي، يجب أن يقف طوفان أفكاري، تذكرت ما تعلمت عن اليقظة بدأت استعمل حواسي حتى يتوقف عقلي، بدأت أشم رائحة جميلة تنبعث من زجاجة عطري، ثم ركزت أكثر فسمعت صوت العصافير القادم من الأشجار خارج الغرفة، كانت أول مرة أسمع فيها صوت زقزقة العصافير، لقد كانت العصافير بجانبي طوال الوقت لكني لم أستطع أن اسمعها، فلم أكن أسمع سوى ضوضاء عقلي، حين خفتت تلك الضوضاء، بدأت اسمع العالم من حولي وانقشعت الغمامة السوداء من عيني .

بوجه مستاء وساخر نظرت أمي لي وأنا أرتدي ملابسي قائلة

_ أخصائية نفسية في مصلحة السجون، هي دي آخرتها

رفعت شعري بيدي وأنا أجيبها

_ ماما.. ده شغلي وأنا بحبه

_ وطبعاً الشغلانة دي مافيهاش حد ممكن يشوفك، بتتعاملي طول الوقت مع سجينات

زفرت بضيق وأنا أضع حاجتي داخل حقيبتي واتجهت إلى باب الشقة

_ بعد إذنك يا ماما هتأخر

لحقتني أمي إلى الباب ووصتني وصيتها الأخيرة

_ ماتنستيش موضوع عادل يا منال.. فكري تاني

لقد سأمت طريقة أمي، تُشعرني إنني في خطر، في طريقي إلى العنوسة، ويجب أن أتزوج سريعاً حتى أنقذ نفسي من هذا المصير، وصلت إلى عملي، تناولت ملف أحد الحالات التي سوف أعمل معها.

الاسم سامية بهواني، العمر خمسة وثلاثون عاماً، شاركت مع زوجها في عمليات نصب وأيضاً مدانة في جرائم قتل بدافع السرقة بالاشتراك مع زوجها، وقد قالت في التحقيقات أنها لم تكن ترغب في فعل هذه الجرائم لكن زوجها قد أجبرها على الاشتراك معه حتى لا تقوم بالتبليغ عنه، كانت هذه أولى حالاتي لليوم، دخلت سامية المكتب، تأملتها ملامح حادة وجسد نحيل وقامة متوسطة، وشعر اشعث وكعادتي كنت أحاول أن أتخيل، ماذا سيكون شكلها إن كانت من طبقة اجتماعية أُخرى غير طبقتها، وجدت أنها تملك وجه جميل إلى حد ما بعد إضافة بعض مساحيق التجميل وان اهتمت بشعرها سيعطيها مظهر أجمل، مع ارتداء ملابس جيدة، حاولت الخروج من تخيلاتي التي لن تُغير الواقع، سألتها

_ سامية انتِ عارفة انتِ هنا ليه؟!

كانت تنظر إلى الأرض منذ دخلت المكتب ثم رفعت نظرها نحو وجهي وقالت بصوت حاد مثل ملامحها

_ عارفة

ثم أعطتني نظرة حادة لم أفهمها لكني فهمت بعدها أن بها بعض التوسل حين قالت لي

_ أنا عارفة اني هتعدم.. بس اني مش عايزاه نموت

قالت جملتها الأخيرة وجسدها يتجه نحوي كأنها تستنجد بي من الموت، لاحظت من لهجتها أنها إسكندرانية فسألتها

_ هو انتِ من إسكندرية اصلا يا سامية

_ أيوة.. بس هربت من أهلي لما تعبت من حياتي معاهم وجيت على مصر.. واتجوزت المدعوق جوزي اللي خلاني اعمل الجرايم دي غصباً عني وأبقى قدامك دلوقت

_ وإية اللي حصل بعد كدة خلاكي تعملي الجرايم دي غصباً عنك

_هيفرق في اية اللي حصل، انتِ أكيد مكتوب قدامك الحاجات اللي عملتها

_ بس أنا عايزة اسمع منك انتِ

_ أحكيلك اية.. في الأول اتضحك عليا، ماكنتش اعرف ان جوزي نصاب ولا كنت اقدر اشتكي لاهلي اللي هربت منهم، ولما عرفت كان لازم أساعده عشان نعيش.. يمكن اللي زيك ماتفهمش يعني اية جوع يخليكي تشتغلي في اي حاجة لاجل ما تعيشي

_ واية اللي وصلكوا للقتل

تغير وجه سامية وتغيرت معه نبرة صوتها وحركة جسدها بانفعال قائلة

_ أنا ماكنتش عايزة نقتل حد، حاولت اكلمه كتير لكن مرعي اللي في دماغه في دماغه، لغاية ما دخل يومها عليا، جابلي واحدة ماعرفش كان عامل فيها اية، وقتلها قدامي وقالي لو اتكلمت هيبلغ اني شريكته، خوفت وارتعبت وسكت وبعدين ماتت راح مرعي سرق اللي معاها وبعدين نزلنا نرميها في النيل وكان بيخليني امثل معاه واحنا خارجين نرمي الجتة، مرة يخليني امثل اني حامل وبولد و مرة رايحين ندفن حد وانا اقعد اولول وفضل الحال كدة

_ قولتي في التحقيقات انك ماكنتيش موافقة تعملي كدة

_ لما تشوفي حد قلبه قسي و قتل قدامك واحدة، مش هيفرق معاه موتك انت كمان، هددني انه هيبلغ اني شريكته في الجريمة لو اتكلمت، وهو ماكنش هيسيبني بعد اللي شوفته، ده غير عيشتنا كانت ضنك وكنا محتاجين فلوس، وهو بعد كل مرة كان بيديني نصيبي من الفلوس وكنت بعيش لي يومين

لم أستطع أن أستمع لها أكثر من ذلك فقد انتهى الوقت المحدد لها واعتذرت لها لعدم قدرتي على إكمال حديثنا وأننا سوف نلتقي مجدداً، لكنها فجاءتني حين امسكت ذراعي وقالت لي

_ اني خايفة.. مش عايزة اموت.. امبارح شوفت جثة ناشفة وعضمها متيبس ولما بصيت لها لاقيتها انا، افتكرت وقتها واحدة من الجثث اللي كنا بتاويها انا وجوزي نشفت مننا لما اتأخرنا ع بال ما نتصرف فيها وجه في بالي اني هابقى شبهها، اني مش عايزه نبقى زيها

لم اتحمل بشاعة تخيلها وفكرت في قول كلمات مناسبة لها ولكن لم أتمكن من إيجاد رد مناسب حتى جاءت إحدى السجانات وأخذتها من أمامي، بعد انتهاء عملي وأنا في طريقي إلى منزلي، كنت أفكر في سامية بل أفكر في مهنتي كلها، حين تسلمت عملي لم أفكر سوى في المرتب الذي سوف أتقاضاه، وأنني نجحت في الحصول على عمل وأنقذت نفسي من البطالة، لم أتصور وقتها أنه سيكون هناك أشخاصاً يتعلقون بالكلمات التي ستخرج من فمي ويربطوا آخر أمل لهم في الحياة بي

****

راجعت مرة أخرى ملف سامية، مجموعة من جرائم القتل المتسلسلة، توحي بأن زوج سامية سايكوباتية يستمتع بالقتل لكن ماذا عن سامية نفسها، قالت ان زوجها أجبرها على الاشتراك معه في تلك الجرائم، حيث كانت تساعده في تهيئة الظروف المواتية للجريمة في تحديد الموعد المناسب لارتكاب تلك الجرائم وذلك بما يسمح لها عملها كخادمة في بيوت المجني عليهن وأيضاً في التخلص من جثثهن وقد اختاروا الضحايا من إناث حتى يسهل عملية قتلهم، فهل استطاعت سامية أن تحتفظ ببعض من إنسانيتها وتعاطفها مع الضحايا، كنت أفكر في ذلك حين دخلت سامية عندي نظرت إليها، وجهها شاحب أكثر من المرة السابقة، يبدو أنها لا تنام جيداً فسألتها

_ عاملة إية النهاردة

_ مابقتش عارفة أنام، خايفة اموت، بقعد أفكر هيحصل إية لما اموت، فكرت في الستات اللي كنا بنموتهم، كان بيشوفوا إية لما يموتوا، إية أول حاجة شافوها في العالم التاني، لما روحهم فارقت

_ انت كنتي بتحسي باية يا سامية وقت موت الستات دي

تغير وجه سامية بدا لي أنها تحاول أن تتذكر شيء بعيد مضى

_ أول واحدة، هو جابها عندي، جتتي اتلبشت ونفسي اتكتم، عملت كل اللي قالي عليه وانا عمالة ابكي، بعدها اداني نصيبي من الفلوس، كنت أول مرة امسك الفلوس دي كلها، بس ماكنتش عايزاها ولا فرحانة بيها قعدت اتحايل عليه كتير اني ماليش دعوة بالي هيعمله لكنه قالي لو سيبته هيبلغ عني او يقتلني، انا حتى فكرت اهرب بس مالقتش حد اروحله، أكيد ربنا عارف اني انجريت للسكة دي غصباً، مش كدة.. عارف اني عملت كدة غصباً عني

صمت.. كنت أرغب في معرفة المزيد فسألتها

_ طب وبعدين، باقي الستات اللي اتقتله

صمتت بعض الشيء، شعرت أنها تحاول ان تُخفي شيئاً لكنها أجابت

_ هقولك الحق، مش هيفيد بحاجة كدبي عليك، في الأول كنت بعمل كدة كارهه ومجبرة لكن بعدين، عاجبني مسكة القرش في ايدي، ماكنتش عايزة افضل خدامة في البيوت، كان نفسي ابقى هانم، ماهو طالما هنتحاسب في الآخرة يبقى اتبسط دلوقت، مع الوقت لما كنا نموت واحدة ومحدش يعرف يوصللنا كملنا طريقنا، وانا اللي كنت بشرحله اللي هنسرقها من الستات اللي بنضف عندهم، بالذات الستات اللي كانت متفرعنة وبتذلني

_ يعني كمان كنتي بتنقمي منهم

_ أيوة بنتقم، اشمعنا هما يبقى عندهم كل حاجة و يتولدوا في بؤهم معلقة دهب وواحدة تتولد ماتلقيش حاجة خالص، اشمعنا اشوف كل يوم واحدة هانم منهم وفاكرة انها اتخلقت من عجينة واحنا من عجينة، طبعاً انت مش عاجبك الكلام وشايفني واحدة طماعة وحسودة، ماهو إحنا مش قد المقام، انت بتيجي هنا شغلك وتلاقيكي قرفانة من المناظر اللي زينا ماحنا قتالين قتلة

نظرت لي بحدة في عيني وهي تقول جملها الأخيرة وتحولت فجأة للهجوم عليّ بعد أن كانت تستنجد بي سابقاً، يبدو أنها أسقطت عليّ ما كانت تراه من نظرات استعلاء لدى مَن عملت معهم، أكملت حديثي إليها

_ لا أبداً بالعكس.. أنا مش هحكم عليكي أنا هنا عشان أساعدك، لو حابة تكملي كلام

بنظارت كلها تحدّ لي شخصياً قالت وهي ترفع أحد حاجبيها

_ حابة أكمل وأزيدك من الشعر بيت أنا أصلا في ستات من اللي قتلناهم كنت حابة اموتهم، آخر واحدة وجوزي برة بيخلص عليها، كنت أنا موجودة جوة اوضتها بلبس هدومها وبحط من العطر بتاعها وهي بتنازع برة، أصلها كانت فرساني أوي، منأنتكة وشايفة نفسها عليا، بعد ما خلص مرعي، أخدنا اللي عايزنه من فلوس ودهب وانا خدت اللي عيني عليه من هدومها وحاجتها

كانت هذه المرة الأولى التي أرى بها هذه الوحشية والغل داخل سامية، فقد نظرت لها من البداية كضحية لزوجها كما قدمت نفسها لي، انتهى وقتي معها يومها فأخذت من أمامي وأنا أشعر بالحيرة من أمرها.

****

تقابلت أنا وسامية مرة أخرى لكن هذه المرة كانت مختلفة فقد تم النطق بالحكم عليها في قضيتها بالإعدام حيث رأي القاضي أنها استحقت عقوبة الفاعل الأصلي، هي مَن طلبت أن تراني، جاءت مكتبي وخطواتها متثاقلة وناظرتها إلى الأرض، ترددت كيف أفتح الحديث معها حتى قالت هي

_ ده مش عدل

_ قصدك الحكم الصدر في قضيتك

_ كل حاجة مش عدل، دلوقت هتعدم واموت و ربنا هيحاسبني بذنب الستات اللي ماتت، بس لو أنا لو كنت اتولدت في مكان تاني بدل هانم من الهوانم دول، ماكنتش هعمل كدة، هو العدل اني اتعذب دنيا وكمان آخره

_ بس ربنا أدانا حرية الاختيار، دي ظروف حياتك وظروف حياة جوزك، صحيح كانت صعبة بس كان قدامكوا اختيار ماتعملوش كدة، ياما ناس ظروفها صعبة ماقتلتش ولا اتهجمت على بيوت حد

أجابتني وهي في حالة انهيار كامل ودموعها تنهمل على وجهها

_ بس ده مش عدل، أنا لما هموت واتحاسب هقول لربنا انه هو السبب، هو اللي خلق الانسان بيجوع وبيجري ورا أي حاجة تسد جوعه، انت اكيد مش فاهمة، تلاقيكي ماجربتبيش الجوع زي، بس قوليلي لو كنتي بتموتي من الجوع وقدامك رغيف مش معاكي حقه، هتعملي اية مش هتاكليه، مش هتحسي دي سرقة وقتها عشان هاتبقي عايزة تعيشي، أهو أنا كنت عايزة أعيش

كان سؤال سامية هو أحد المعضلات الفلسفية التي لم يتم حلها بشكل نهائي، وكلامها يَغلب عليه الغضب من الاله الذي لم يوفر لها سُبل الحياة وفي نظرها سيحاسبها على ذلك، كما أنها لم تُحمل نفسها أي مسؤولية، يا الله كيف للإنسان أن يبرئ نفسه مما فعل ويلقي بالاتهام على الاله أو ظروف الحياة أكملت حديثها

_ تفتكري حاجة وتلاتين سنة اللي عيشتهم في الأرض دول، يستاهلوا اتعاقب عليهم للأبد

_ بس انت لية بتتكلمي كأنك خلاص مُتِ ورايحة جهنم، انت لسة عايشة وقدامك فرصة تتوبي مدام انت لسة بتتنفسي

_ تفتكري ممكن واحدة زي تتوب وربنا يغفرلها، ده أنا سرقت وقتلت، في الأول كان غصباً عني آه، لكن بعدين اتعودت على السرقة والقتل

_ لية لا.. ربنا فاتح طريقه لأي حد، طالما لسة عايشة، اطلبي من ربنا يغفرلك، أنا ماعرفش ربنا هيحاسبك ازاي على اللي عملتيه، لكن اعرف انه بيسمعنا وفاتحلنا باب التوبة دايماً

لم يكن بوسعي أن أخفف من انسان علم أنه سيموت ويعلم أنه ذاهب إلى الجحيم لما فعله، حتى جاءتني هذه الفكرة، لماذا لا تصلي سامية في آخر أيامها وتطلب من المغفرة من الله، كانت أحكام الإعدام تسترق وقتاً طويلاً حتى يتم تنفيذها، وهو ما كان أكثر صعوبة على النفس البشرية، حيث ينتظر المحكوم عليهم داخل زنزانتهم في انتظار تنفيذ الحكم في أي لحظة، أي أنه ينتظر أن يموت في أي وقت، في هذا الوقت طلبت من سامية أن تُصلي، كنت أرغب أيضاً في أن أذهب إليها لعمل جلسات معها قبل تنفيذ الحكم وطلبت هذا من ادارة السجن ورغم صعوبة طلبي فقد قابلتها مرة واحدة قبل تنفيذ الحكم عليها. وهذه كانت صلوات سامية قبل أن تعدم، قد أُغلق الباب عليها وهي وحيدة في ظلام السجن تنتظر تنفيذ حكم إعدامها في أي لحظة بعد أن أقمت بإعادة صياغتها والاحتفاظ بها لنفسي : أعلم أنك عادل

وأعلم إني مجرمة، وقد استحققت كل عقاب عادل منك، ليس لي مكان كي أهرب من وجهك، هل لي أن أطلب أن تسطع برحمتك عليّ، مثلما يسطع القليل من الضوء من نافذة زنزانتي على وجهي كل يوم، إني أقل من أن أطلب غفران لنفسي فقد تجبرت جدا وقد أصبح قلبي يابس مثل جثث ضحاياي، تماديت في شري وآثمي، كنت نسيت أنك موجود، لم يهمني سوى طلب نفسي لأكلي وخبزي والتنعم في ملذات الدنيا، حتى شعرت أن الموت كذبة وها أنا أقترب منه، لماذا يا خلقتني، يخبرني صوت بداخلي، لماذا خُلقت، هل خُلقتني من الأسرة فقيرة حتى أكبر وأخطأ فتحاسبني، ليتني لم أولد من الأساس، ليت هذا العذاب الذي عيشته وجعلت آخرين يعيشوا لم يكن، سامحني يا الله إن كنت ألومك على شر فعلته، فإن عيشت في إثم وأود أن أموت بشرف، إنك عادل ولك معي حساب وليس لي دفاع عن نفسي سوى طلب رحمة وإقرار بذنوبي في اللحظات الأخيرة من عمري وطلب رحمة لروحي

إنني لستُ سوى صرخة تئن في الفراغ، روح منسية في الفضاء، أنظر إلى بقعة الضوء الصغيرة المنبعثة من النافذة وصوت صراخات أرواق ستُزهق، وقلب يصرخ إليك يا الله كي ترحمه مما صنعت يداه، قد فنى عمري في أفعال الشر ولم يبقى سوى لحظاته الأخيرة تطلب الصفح منك

مرت أيام وأيام على سامية وهي تجلس في زنزانتها مثبتة عينيها على الضوء الخافت الداخل في صمت حتى اعدمت ولم يكن شيء تتذكره سوى آخر كلمات قالتها لها منال وقد استشهدت بأحد آيات سفر المزامير في الكتاب المقدس لكونها مسيحية فقالت لسامية

_ انت عارفة يا سامية، انت بتقولي مالكيش عين تدعي ربنا عشان اللي عملتيه لكن هقولك على آية من الانجيل، كاتبها بيقول ان راعيت إثماً في قلبي لا يستجيب لي الرب كدة عندك اثم محتفظة بيه وبتحبيه، مهما صليتي ربنا مش هيسمعلك عشان عمليته قاصدة لباقي لكن قد سمع الرب صوتي، وقريت الجزء كله بيقول للناس اللي خايفة من ربنا اسمعه قصتي واللي ربنا عامله معايا، انا رعيت اثم جوايا وكنت فاكر ان ربنا مش هيسمع لي، لكن شوفه رحمته ربنا سمعلي واستجاب لي

هَلُمَّ اسْمَعُوا فَأُخْبِرَكُمْ يَا كُلَّ الْخَائِفِينَ اللهَ بِمَا صَنَعَ لِنَفْسِي. صَرَخْتُ إِلَيْهِ بِفَمِي، وَتَبْجِيلٌ عَلَى لِسَانِي. إِنْ رَاعَيْتُ إِثْمًا فِي قَلْبِي لاَ يَسْتَمِعُ لِيَ الرَّبُّ. لكِنْ قَدْ سَمِعَ اللهُ. أَصْغَى إِلَى صَوْتِ صَلاَتِي. مُبَارَكٌ اللهُ، الَّذِي لَمْ يُبْعِدْ صَلاَتِي وَلاَ رَحْمَتَهُ عَنِّي.

الحكاية السابعة : المحاولة

نحن الآن عام ألفان وثلاثمائة وخمسين، لا يهم مقدار التطور التكنولوجي الذي حدث في هذه الفترة، كل ما يهم في قصتنا هو التطور في الجانب الفكري والانساني، حيث تغير العالم كثيراً أصبح الغالبية من الناس هم الملاحدة والا أدريين واللا دينيين ولم يعدوا بحاجة لإخباء انفسهم هذا ما يحدث الآن في الشرق الأوسط ولا يزال هناك أناس يدينون بأديان خاصة الأديان الابراهيمية لكنهم أصبحوا وسط العالم الحديث، كثيراً ما ينظر إليهم كأشخاص رجعيين أو مجموعة من الموهومون الذين لم يتخلصوا من الأساطير القديمة، أو ينظر إليهم كمجموعة من الارهابين فاصبح هؤلاء الأشخاص في حاجة دائماً للدفاع عن أنفسهم، في هذه الظروف تبدأ قصتنا، قصة الشاب في العشرينات من عمره الذي يدرس الطب في العاصمة لكنه ينتمي إلى قرية بسيطة في الريف وها تبدأ قصتنا.

****

أنظر كل يوم إلى الحقول من حولي تبدو مزهرة وجميلة اليوم مثل كل يوم، اتأمل وجوه العابرين في الطرق وانا أنتظر زميلي رفيق، ها هو يعبر الطريق إلي وهو يبتسم إلى إحدى الفتيات المارات فترد عليه بنظرة تحقير يصل لي أخيراً ويسألني ساخراً

_هل تأخرت كثيراً

_ لم اشعر بالوقت، فقد تحدثت مع والدتي وكعادتها في نهاية حديثنا دعت لي

ابتسم صديقي ساخراً

_ هلا أخبرتني أن والدتك لازالت تعتقد بوجود إله، ذكرني بأي ديانة كانت تدين

_ بالمسيحية

_ انت تعرف أني لازالت لا استطيع التفرقة بين هذه الأديان، أعتقد ان اجدادي كانت ديانتهم الإسلام، أو ربما غير ذلك، لا يهم الأمر

استعمت إلى سخرية صديقي بصمت فقد اصبح معتاداً بذلك، فهو غير مؤمن بوجود اله ولا يشعر أن هناك شيء ينقصه، أما أنا فقد كانت ضالتي كبيرة، فليس لي أحد أشاركه أفكاري، أو أخبره إنني لا اقتنع بفكرة عدم وجود إله، فإن قلت هذا سأبدو متخلف غير إنني أدرس الطب، أول شيء سيقال لي أنني رجل علم ألم أقرأ حتى عن نظرية التطور حين كنت صف خامس، وتبدأ رحلة السخرية، فقد

أصبحت كل الفلسفات والثقافات التي تُقدم الآن تشير إلى عدم وجود إله وأي محاولة لمخالفة ذلك يُنظر إليك بأنك ضعيف عاطفي في حاجة لمثل هذا التوهم بوجود إله كي ينقذك، لم أكن أعرف كيف أشرح هذا الصوت الداخلي الذي يخبرني بوجود إله لهذا الكون وإنه صالح وإنه يحبني، أخبرت ذات مرة تقليد زميلي بهذا الأمر وهو مهتم بعلم النفس أخبرني أن هذا هو صوت أمك، فهذه هي الكلمات التي كانت تخبرك بها حين كنت طفلاً وهي الآن أصبحت صوتك الداخلي، ربما أقنعني كلامه لكن لم يغير من حقيقة شعوري، في طريقنا إلى الجامعة قابلنا جُنيد وهو زميل دراسة، ألقى جُنيد نظرة إلى فتاة عبرت أمامنا وكانت ترتدي شيئاً يدل على هويتها الدينية استاء جُنيد من مظهرها وقال:

- كيف إلى الآن يوجد مَن يعتقد بوجود مثل هذه الخرافات و يعتد بها

أجبته: ما شأنك بها، لما أنت غاضب إلى هذا الحد

جُنيد: ألم تقرأ تاريخ من قبل، أن هؤلاء "المؤمنين" كما يدعون أنفسهم كانوا سبب في إقصاء ونبذ كل مَن هو مختلف عنهم وفي الأزمنة الموغلة في القدم كانوا يعذبون ويقتلون المختلفين عنهم

_ لكن لا أحد يفعل هذا الآن بل بالعكس تراهم دائماً خائفين، يحاولون محو الصورة الذهنية القديمة عنهم بأنهم إرهابيون وكارهون للحياة

_ هذا فقط لأنهم أصبحوا أقلية، وفقدوا أي سلطة ملكوها

دخل رفيق معنا في الحوار قائلاً لي

_ لا أفهم سبب دفاعك الدائم عن هؤلاء، رغم أن مَن تُدافع عنهم لا يحبوننا بل في نظرهم نحن عُصاه هالكين، ويشعرون بالأفضلية الأخلاقية دائماً على أساس أن ليس لدينا قيم أو مبادئ وقديماً كان كلمة ملحد مسبة وضحكا سوياً فقد كان الامر اقرب إلي نكتة

أجبته

_ وهناك أيضاً مَن يشعر مِن الملحدين بالأفضلية الثقافية والعلمية نحوهم وكأن لا مؤمن مثقف ومتحضر

نظر لي رفيق في استياء ثم قال وقد رفع أحد حاجبيه

_ هل يا صديقي سيأتي يوم وأراك تردد هذه الخرافات

_ لستُ متأكد بعد من أنها خرافات

_ هلا تعتقد أننا في هذه الحياة مجرد ممثلون ومَن يحركنا حقاً هو الشيطان أو الله، أنهم يتجاهلون طبيعة الخير والشر بنا وينسبوها لقوى خارجية

_ لا أعتقد أنهم يفعلن ذلك، حقيقة لستُ دارس لأي عقيدة حتى أستطيع الرد عليك، لكن ما أعلمه أن هناك عالم روحاني يؤمنون به، أنا كثيراً أفكر ما أول شيء ستراه عيني عقب موتي، لا أعرف، لا أصدق أن الموت سيكون نهاية، أشعر أن هناك بداية أخرى بالتأكيد.

لم أحب أن أكمل حديثي مع صديقي فقد كنت أعرف أن رفيق يرفض وجود الله لأنه يؤمن بالعلم ويرى وجود الله يشجع على الخرافات والأساطير لا تُصدق أما جُنيد فقد كان فنان حالم، يجد في الأديان التقليدية قيود تحد من حريته وتمنعه من ممارسة الحب مع مَن يرغب وأنها تقيد رغباته ومشاعره.

أثناء حديثنا جاءت إلينا نيڤيهان صديقتنا لم تسمع كثيراً ماذا قيل لكنها سمعت الجُمل الأخيرة من حديثنا وكانت تمسك بأحد كتب الطاقة ومعلقة قلادة حجر كريم اخبرتنا أنه الحجر الذي يناسبها وأنه يجلب لها الحظ الجيد، نظر لها جُنيد ورفيق وقالا لي: ها قد جاءت شريكتك أنها مثلك تعتقد بمثل هذه الأفكار حتى قالت لي مرة أنها عاشت في عالم قديم وزمن قديم كأحد الجاريات ثم كممثلة والآن روحها تشكلت كطبيبة، تؤمن بالفلك وتشرح لنا كثيراً ما لا نستطع فهمه منها، تخبرنا كثيراً عن الكون وما يرسله لنا وما نرسله له وكيف نظل نعيد تلك الدروس حتى الروح تتعلم درسها، هناك الكثيرين أيضاً يتبعون هذا العلم ويقولوا أنه قد غير حياتهم، تحدثنا أيضاً عن قبول العالم والتسليم لإرادة الكون العليا، كنت افكر كثيراً أليس هذا قريباً لما كانت تخبرني إياه والدتي حينما كنت طفلاً يجب أن نسُلم حياتنا لله وقبول ما اعطاه لنا، تحدثني نيڤيهان أيضاً عن أهمية الامتنان الذي يرسل ذبذبات عالية للكون فترد لنا هو يمكن تسميته أيضاً بالشكر لله حتى يزيدنا، لكن رغم اتفاق نيڤيهان معي على وجود العالم الروحي لكنها ليست مؤمنة بالمعنى التقليدي الذي كانت عليه أمي، نعم كنت أجد تشابهه بين فكر نيڤيهان وفكر والدتي لكنهم لم يكونا نفس الشيء، لذا كنت ارتاح في الحديث معها عن الروحانيات لكننا لا نتفق اتفاق تام، لكن لماذا يوجد قبول نسبي في عالمنا الآن لهذه الافكار ورفض لفكرة الدين التقليدي، ربما لأننا نرغب في إله نشكل نحن صفاته ولا نرغب في التعرف عليه كما هو.

قد حان موعد المحاضرة لكن قبل ان نذهب تلقيت اتصال هاتفي من رقم والدتي لكنها لم تكن هي بل كانت إحدى الجارات اتصلت لتخبرني توفت والدتي

****

ذهبت إلى الكنيسة في قريتنا، كانت المرة الأولى ادخل كنيستنا من فترة طويلة، حيث أعتدت في طفولتي أن تأخذني أمي إليها لكن حين كبرت لم أعد أشعر بحاجة إلى آن أتواجد فيها، بدأت تُقام صلاة الجناز لأمي، لقد انتهت حياتها مثلما تمنت داخل الكنيسة، بموت امي شعرت أن دائرة الفراغ قد اتسعت داخلي، فكأن إيمان أمي رغم كونه كان مصدر سخريتي دائماً، الإ أنه ربما كان مصدر طمأنينة لي دون أن أدري، حيث كانت تؤمن دائماً بوجود إله صالح يعتني بنا، كنت دائماً أسمعها تتحدث عن الله قائلة أنه أخبرها بشيء تفعله أو ساندها حين كانت بحاجة إلى سند أو علمها شيئاً ما، لم أكن أفهم كيف لها تتحدث مع اله غير منظور كأنها في علاقة حقيقية معه، رغم سخريتي منها الا إني كنت أحسدها بل وأغير منها لماذا لا يتحدث الله لي مثلما يفعل معها، لماذا لا يجيب كافة الأسئلة التي تدور بذهني، تذكرت حين كانت تقول لي أمي إن الله لديه أساليبه الخاصة وتوقيتاته الخاصة به.. انتهت صلاة الجناز، دفنت أمي، ودعتها للمرة الأخيرة، والآن سوف تعرف أمي إجابة سؤالي ما أول شيء سيراه الإنسان عقب موته، بعدما ذهب المعزيين بقيت بمفردي جلست بجوار قبر والدتي وحيداً أتأمل قريتي من بعيد، وأوراق الشجر وطيور السماء المحيطة بي، ثم بدأت أبكي فقد هجرتني أمي للأبد، رفعت عيني إلى السماء وتذكرت أمي حين كانت تصلي قائلة رفعت عيني إلى الجبال من حيث يأتي عوني، ثم بكيت لماذا يحجب الله وجهه عني، هل أغضبته إلى هذا الحد، ثم بكيت أكثر، تذكرت جميع ذكرياتي مع أمي، تذكرت أسئلتي وحيرتي وبحثي في الفلسفات المختلفة كي أجد إجابة، فقد كانت أمي بسيطة جداً لا تستطيع فهم تلك الفلسفة وكنت اشعر بالأفضلية عليها وقتها أما الآن فأنا أحسدها، فقد ملئ الشك قلبي لم آخذ خطوة في أي طريق لم أؤمن بالله كما يجب ولم ألحد مثل أصدقائي بل وقفت في منتصف الأمور، لم أشرب لأرتوي فقط كنت أنظر إلى النهر مكتفياً بالرؤية فقط لكني لازالت ظمآن، نظرت مرة أخيرة إلى قبر والدتي، كل ما تمنيت أن يكون لي تلك الإيمان البسيط الذي كان لها، فقد اكتفيت من المعرفة ثم نظرت إلى سكان قريتي الذي كان معظمهم من المؤمنين بغير سكان المدن ورغبت أن أرجع فأكون مثلهم شخص بسيط لكن دو بصيرة.

بصعوبة حاولت أفهم ما يجري، نظرت إلى كل شيء من حولي، أين أنا، ما هذا المكان، يبدو أنها مستشفى ويبدو أنها المستشفى التي أعمل بها، لماذا لا يلقي احد السلام عليّ أو يحادثني أو حتى ينظر لي، الجميع يتجاهلني، مهلاً ما هذا، يبدو أن هناك أحد يبكي، اقتربت لأرى، فرأيت أصدقائي في المستشفى ومعهم بعض من أهلي، لكن لماذا البكاء، ماذا حدث معهم، حاولت أن أتذكر آخر شيء فعلته، يا الله، أشعر وكأنه مضى ألف عام، عقلي لا يتذكر شيء، مَن أنا أصلاً، وماذا أفعل هنا، تذكرت نعم لقد تذكرت، أنا الكسندرا ولدت بمقاطعة ساموا الأمريكية، من عائلة مسيحية، نعم أتذكر الآن، كانت أمي منذ صغري تحدثني عن الرب وعن القديسين والقديسات، في أحد الأيام سألت أمي عن صورة إمراه كانت لدينا في المنزل، مَن تكون تلك المرأة، أخبرتني أنها الأم تريزا، لم أكن اعرف حينها مَن هي الأم تريزا، فظلت أمي تحدثني عن أعمالها وحياتها وكيف ساعدت الكثير من البشر، أعجبت جداً بالأم تريزا وأحببتها ثم وددت عندما أكبر أن أكون مثلها، وصليت للرب أن يجعلني مثل الأم تريزا عندما أكبر، لذا كان من الطبيعي أن أختار دراسة الطب وبالفعل درستها وتخرجت منها وكنت طبيبة متميزة لكن هذا فقط لم يساعدني في تحقيق حلم طفولتي أن أكون مثل الأم تريزا، لذا قررت أن أسافر إلى الهند، حيث هناك في أحياء الهند الفقيرة، أصبحت أعمل في مستشفى تساعد الفقراء وكنت أجري لهم الكثير من العمليات الجراحية بمقابل مادي ضئيل، تذكرت كل ذلك فشعرت بالرضا عن نفسي، لقد أفنيت حياتي في خدمة الرب، ثم سمعت احد أصوات المارة يقول وهو ينظر إلى جثة ما، ويبدو على صوته التأثر، فلترقد بسلام لقد كانت حقاً قديسة، أحبت الناس كلها وساعدتهم بدون مقابل، يا الله لستُ أفهم عن مَن يتحدث، هل يتحدث عني، نظرت إلى تلك الجثة بتمعن، كيف لم أعرفها أنها أنا، يا للهول، لقد مُت والجميع هنا حزانى لموتي، ثم سمعت صوتاً قائلاً لا يجب أن نحزن لموت الكسندرا فهي أكيد ذهبت إلى السماء، فقد أفنت حياتها لخدمة المرضى، ثم ابتسمت نعم إن كنت أفنيت حياتي في خدمة المرضى ويبدو إني عملت أعمالاً كثيرة صالحة فلماذا أخاف إن مُت

_ الكسندرا الكسندرا

نظرت خلفي، وجدت نوراً ساطع، يا الله، ما هذا، حاولت أن أنظر إنه ملاك، هل هو من سيدخلني إلى جنة الفردوس

نظر لي الملاك باستياء، لقد تركتك وقت طويل حتى تتذكري مَن أنتِ وما هي حياتك، والآن جاء وقت نتيجة أعمالك في الحياة، ثم أخرج صندوق، بدا كبير جداً، اخرج منه أوراق كثيرة، ثم أخرج ورقة صغيرة ونظر لها، ثم قال لي

_ يؤسفني أن أخبرك أنكِ لا تستطيعِ الدخول إلى السماء

أحمر وجي مجازياً وانفعلت قائلة

_ لكن كيف، يبدو إنني قضيت حياتي كلها في خدمة الرب وخدمة المرضى

زفر الملاك قائلاً

_ أنظري هذه الاوراق كلها بها ما قمتِ به من أعمال صالحة لمساعدة المرضى الفقراء، لكن أنظري هنا، هذه الورقة الصغيرة، مكتوب بها خطيئة واحدة وهي البر الذاتي، لقد خدمتِ الفقراء لكنك لم تخدمي الرب

صرخت به

_ ماذا.. كيف.. وكل هذه الأوراق التي بها أعمالي الصالحة لن آخذ أجرها

_ حقيقة مكتوب عندي، أنك بالفعل أخذتِ أجرك

_ متى

_حين كنتِ في الارض، فالجميع كان يراكِ قديسة

_ نعم، لكن هناك أعمال خيرية كنت أفعلها في الخفاء لا في العلن

_ مكتوب أن هذه أيضاً اخذتِ أجرك عليها، ففي كل مرة فعلتِ فيها هذا كنتِ تنظرين إلى نفسك كقديسة وأنك شخص عظيم

بدأت أبكي، ابكي كثيراً ثم سألته

_ لكن هل كان يجب أن أشعر بالحزن إن ساعدت أحدهم وأنقذت حياته، كان من الطبيعي أن أشعر بالرضا عن نفسي

_ نعم طبيعي ان تشعري بالرضا حيال نفسك لكن كان يجب أن ترجعي المجد لله، وليس لك، كنت تفعلين هذا بلسانك فقط، أما في قلبك، في كل ساعدتِ أحد، كان قلبك يتحرق شوق لذلك الإحساس بالعظمة وانك أفضل من الآخرين وأنك قديسة، كنتِ تعلمي في قرارة نفسك إنه سيأتي اليوم الذي تُكشف فيها أعمالك فيقول الجميع أنها كانت قديسة وهذا ما حدث بعد موتك سيتذكرك الجميع بأنك كنتِ قديسة وحينها

تكوني قد حققتِ حلم طفولتك وأصبحتِ مثل الأم تريزا، لقد كانت الاعمال الصالحة في حد ذاتها شهوة قلبك، هدف من خلاله تكونِ إمراه عظيمة، نسيتِ أنه يجب أن ما يشعرك بقيمتك هو وجودك في الرب وليس أعمالك الصالحة

سمعت كلمات الملاك وأنا ألتاع من الحزن والكرب، هل أضاعت عمري في الطريق الخاطئ ثم سألته

_ إذن هل سأذهب للجحيم

_ لا لن تذهبِ.. أنتِ لم تأذي أحد.. لكن أيضاً لن تدخلي السماء

_ إذن.. أين سأذهب

_ ستقفِ على الباب السماء هنا لكن لن تدخلِ

بكت الكسندرا، تذكرت حين كانت طفلة صغيرة وتركتها أمها في أحد الأيام وأخذت أختها لتخرجا في نزهة، كان شعور قاسي حينئذ، هل سيكون هذا هو شعوري للأبد أقف على باب السماء ولن أدخل، نظر لي الملاك بشفقة وقال

_أليس هناك من احد يذكرك ويصلي لك

_اذ كان الجميع يعتقد أني قديسة، فهل سيصلي من أجل غفران اخطائي أحد، لكن هل هذا سيغير شيء

_ لا أعرف، لكن يأتينا صلوات كثير من أجل المتنحيين دعيني أفكر.. خذي صندوق أخطائك وجربي أن يشفع لكِ أحد هؤلاء القديسين

حملت الكسندرا صندوق الخطايا الخاص بها وجدت انه ثقيل جداً وتفاجأت كيف يكون بهذا الثُقل وهو يحوي فقط خطيئة واحدة، وهي تعبر إلى أحد القديسين وجدت أشخاص داخلين إلى السماء لم تكن تتخيل أنهم سوف يدخلوا إليها بل كانت دائماً تضع نفسها فوقهم، ودت أن تبكي كمداً، كيف يحدث ذلك، كيف لها أن تخدع نفسها إلى هذا الحد وكيف نفسها صورت لها أنها في مكانة أعلى طول الوقت، أخيراً وصلت إلى أحد هؤلاء القديسين، عرفت إنه قديس من الهالة الكبيرة التي أحاطت بوجهه، كان النور المشع منه كثيراً جداً، لم تعرف من هو لكن عرفته بنفسها وأنها تطلب شفاعته لكنها تفاجأت إنه يعرفها

_ آه يا الكسندرا.. ماذا تطلبين، هل تعرفي أن أسمك سيخلد على أحد المستشفيات التي خدمتِ بها

_ كيف يخلد والأرض نفسها ستزول ويزول كل ما بها

_ لكن هذا ما كنتِ تبحثين عنه دائماً الخلود والتكريم من البشر وقد أخدته، إنه العدل

_ أي عدل.. لقد أضاعت حياتي كلها وأنا أخدم المرضى في الوقت الذي كانت فيه صديقاتي تسهرن وتستمعن بشبابهن.. لم أكون عائلة ولم يكن لي أولاد أو حتى ثروة، كنت أتعامل مع امراض معدية واعرض حياتي للخطر يومياً.. هذا ليس عدلاً

_ الكسندرا.. أنتِ تشبهِ إلى حد كبير الأخ الكبير في قصة الابن الضال، إنك تعتقدِ انك تستحقِ لأنك أفنيتِ حياتك، وكأنك استوفيتِ أجرة السماء وتطالبي بها

طأطأت الكسندرا رأسها أمام القديس، شعرت بالعار كأنها تعرت بالرغم من إنه لم يُعد لها جسد، كانت روحها تعرت، امتزج داخلها الخزي بالخوف بالندم، لا يوجد في قاموس الحياة بعد ما يمكن أن يصف إحساسها هذا، أن روحها الآن معذبة والبكاء صار صوت روحها ثم نظرت إلى القديس بأسى وقالت بعينين خجلة

أشفع لي حتى أدخل السماء وقدمت له صندوق خطاياها، حمل عنها الصندوق ثم طرق عليه، استمر الطرق بصوت أعلى وأعلى، لم أعرف ما هذا حتى أدركت إنه صوت الباب، هناك أحد يطرق باب غرفتي، يا الله لقد قد كنت أحلم، لم أمُت، لا يوجد ملائكة ولا قديسين، أنا في مكتبي في المستشفى، وأمامي كتاب عن الأم تريزا كنت أقرأه قبل أن أغفو، فتحت الباب كان التمريض يبلغني بموعد أحد العمليات، اخبرته إني قادمة، ثم فكرت أن ما سأصنعه عظيماً لان العملية التي ساجريها ستجعل أحد الأطفال يمشي مرة أخرى لكني تذكرت الحلم أنا لا أجعله يمشي بل الله يفعل هذا من خلالي، لكن هذا لم يمنعني من الشعور بالخيلاء، صليت في قلبي لله، أن يساعدني كي أتخلص من شعوري بالعظمة والأهمية ومضيت إلى غرفة العمليات، في المساء بعد انتهاء يوم عملي، حزمت امتعتي وعزمت على السفر إلى أهلي في جزيرة مقاطعة ساموا، تأملت هناك الطبيعة الخلابة وذهبت إلى كنيستي وكان بداخلي برغبة أن أصلي من أجل أجدادي الذين صعدت أرواحهم إلى السماء، فقد كنت أرغب أن يصلي من اجلي أحدهم في الحُلم.. صليت وصليت من أجلهم ومن أجل أن لا يغتر قلبي.

الحكاية التاسعة: جرائم الخيال

بيروت حقبة الستينات، بأحد مدارس الراهبات الداخلية للبنات، ذات يوم أتى القس في زيارة للمدرسة، قدمته الراهبة للفتيات وقالت أن القس آتى وبحوزته مفاجأة لهن، اجتمعت الفتيات في فناء المدرسة وهن يتهامسن سراً، تُرى ماذا أحضر القس شربل لهن، كان من بين فتيات المدرسة سارة وتريز وشانتيل جلسن في الصفوف منتظرين ما سوف يقدمه القس لهن حتى أخرج جهاز بدا غريب لهن، ابتسم الأب شربل بابتسامته المعهودة وقال ونظره نحو الفتيات، ها يا فتياتي يا حلوات، تُرى هل يمكن أن تخمن ماذا يكون ذلك الجهاز، نظرت الفتيات لبعضهن في دهشة وقالت إحداهن

- امم هيدا راديو

ثم قاطعها أخرى قائلة

- لا هيدا شكله الاختراع الجديد المسمى تلفزيون يلي مانسمع عنه،

صمت الأب شربل قليلاً وهو يراقب ردود أفعالهن ثم قال إنه جهاز قريب للتلفاز لكن شاشته لا تعرض أفلام أو مسلسلات لكن تعرض شيئاً أكثر أهمية، تُرى ماذا تعرض

نظرت الفتيات كل واحدة إلى زميلتها في حيرة تُرى ماذا تعرض هذه الشاشة.. فابتسم الاب شربل أخيراً بعد أن رأي مدى تشوق الفتيات لمعرفة ماذا تعرض هذه الشاشة ثم قال بصوت هادي ومتزن، أنها تعرض الخيال

ارتسمت علامات الدهشة وعدم الفهم على وجوه الفتيات، فأكمل نعم أنها تعرض ما تفكر فيه وتتخيل لمدة أكثر من دقيقة، صدرت همهمة من الفتيات أسكتها الراهبة حتى يكمل الأب شربل كلامه فقال إن هذا الجهاز مهمته مساعدتكم أن لا تفكروا في أي أمر شرير أو مخجل، حيث سنقوم بتوزيع جهاز يُلصق على قلادة كل واحدة منكن، ومن ثم نلتقي الأسبوع القادم وسوف نعرض ما سجله الجهاز أمامنا جميعاً، صدرت عن الفتيات همهمة لكن بصوت أعلى هذه المرة، حاولت الراهبة إسكاتهم حتى يستطيع القس أن يكمل حديثه، فقال أخيراً لا تجذعوا يا بناتي لأن هناك فرصة مدتها دقيقة كاملة إن فكرت في شيئاً سيء أو مخجل، اهرب من الفكرة بممارسة التأمل أو أي شيء آخر قبل أن يسجل الجهاز الفكرة والآن تقدمن إليّ يا بناتي الرقيقات حتى أعلق لها القلادة وغير مسموح لأي فتاة أن تنزع هذه القلادة من رقبتها حتى في أوقات النوم ولنا لقاء آخر الجمعة القادمة.

****

عقب مغادرة الأب شربل وعند حلول المساء، تجمعت الفتيات سارة وتريز وشانتيل في غرفتهن، فقد كانت سرائرهن بجوار بعض، قالت شانتيال: شو هاد يا الله، حتى الخيال، راح نخاف نتخيله

سارة: كيف عم تحكي هيك، مانك خايفة يعرفوا ان هيك قلتي الجمعة الجاية

شانتيل: بس هادا حكي مو خيال

تريز: وشو الفرق

شانتيل: بعقتد الخيال صور، لانه بيتعرض على الشاشة، لكن كيف هيعرضوا الكلام

تريز: لازم وقت اللي بتفكري يتحول الكلام لصور في عقلك، هيك بتتعرض على الشاشة

شانتيل: وانا هيك بعتقد

سارة: بنات انا كتير خايفة

تريز: وليش لتخافي، شو راح نتخيل يعني، بس فكروا احنا هنعرف بشو عم يفكروا باقي البنات

سارة: انت هادا كل همك

شانتيل: بعتقد لازم ننام، ما بنعرف شو عم تسجللنا هاي السلسلة، منيح ما بتسجل الأحلام كمان

سارة: ايه، خلينا ننام احسن

تريز: تصبحوا على خير يا بنات

****

في الأيام التالية، ظهرت التغييرات على الفتيات في المدرسة، إذ أن معظمهن يعملن طيلة اليوم، ويحاولن شغل أوقات فراغهن سواء بالقراءة أو الصلاة، وقد سعدت المدرسات كثيراً بهذه التغييرات، وفي أثناء ذلك، لاحظت سارة وشانتيل تغييرات في تريز صديقاتهن

سارة: شو في يا تريز

صمتت تريز ولم تجب

شانتيل: احكي بقى وخليصنا

تريز: انا اتخيلت شغلة

سارة: شو اتخيلتِ احكي

تريز: وقت كنت اخرج تيابي الجديدة، لقيت رشا عم تصبلي نظرة ماحبيتها، كأنها عم تتريق على وزني، انه وزني زايد وهيك تيابي، ما قدرت امنع حالي اتخيل اني عم سبها وضليت اضربها لحتى جيبها الارض

سألتها سارة وشانتيل بلهفة

سارة: واتخيلتِ اكتر من دقيقة

شانتيل: شو كانت المسبة، شي كتير قبيح

تريز: ما بعرف قديش اتخيلت، لكني طول اليوم، كنت ارجع اتخيل هيك منظر واحاول اصرف نظري وارجع اتخيل تاني

سارة: شو بدنا نعمل هلأ

شانتيل: أنا عندي فكرة، شو رأيكن نسرق الجهاز يلي بنستقبل عليه خيالاتنا، اكيد هو موجود بمكتب الأم دومينيك ونقدر وقتها نمحي شو ما بدنا

سارة: لا انا بخاف اسرق، بلكي حدا شافنا، شو راح نعمل

شانتيل: وقتها نبقى نقول حيالله شي، مثلا عم ندور على الام دومينيك، بدنا ياه في شغلة وهيك شي

سارة: انا لستاني خايفة

شانتيل: اية خلص، خليكي انت بعيد، وانا تريز بدنا نروح نسرقه

سارة: وانت قاتلة حالك هيك كرمال تريز ولا شي تاني

ارتبكت قليلاً شانتيل وقالت

_ بنات، انا كمان اتخيلت شي، كتير بشع، اتخيلت اني برقص، انتوا بتعرفوا قد اية بحب الرقص، اتخيلت اني برقص شرقي

ذهلت الفتيات من كلام شانتيل، يبدو أن لا أحد أستطاع أن يسيطر على خياله ثم نظرت شانتيل إلى سارة وقالت

_ شو سارة، انت الوحيدة بيناتنا يلي ما اتخيلتي شي، لهيك، ما بدك تسرقي الجهاز

ارتبكت سارة وبدأت تنظر حولها

_يعني اتخليت قصص عادية، اصلا ما بعتقد اني اخدت في خيالي اكتر من دقيقة

نظرت شانتيل وتريز لها بريبة وقالت شانتيل باستهزاء

_ بالله شو

ثم قالت شانتيل: أنا هلأ راح حاول اتسلل إلى مكتب الام دومينيك، الساعة عشرة، غالباً هي عم تمر على الغرف يمكن نتسلل بهاد الوقت ونمحي شو ما بدنا على الجهاز، مين منكن بتجي معي

وافقت تريز أن تأتي كي تمحي ما تخيلته وبعد تفكير لثواني وافقت أيضاً أن تأتي سارة معهن، ولحسن الحظ كان مكتب الام دومينيك مفتوح ولم تكن به، كانت البنات تعلمن أن هذا لن يستمر سوى دقائق فستأتي الام دومينيك في أي وقت إلى مكتبها، ظلت كل واحدة تنظر في أرجاء الغرفة، أين يمكن أن يكون الجهاز

قالت تريز: أكيد ما راح تتركوا في حية الله مكان، اكيد ما خبيتوا في مكان آمن

قالت سارة: لك بصوا فوق هيك، هو هنيك، فوق الطاولة، انا عم شوف صور

نظرت الفتيات الثلاثة إلى أعلى، يبدو أنه حقاً فوق، لأنه يقوم بالتسجيل، قامت الفتيات بوضع بعض الكراسي فوق الطاولة وساندوا بأيديهم ثم صعدت شانتيل وحاولت أن تأتي بالجهاز وبالفعل استطاعت ذلك ثم أنزلته من فوق و نزلت إلى صديقتيها وقالت: لكوا بصوا، هيدا الجهاز عم يسجل، كيف بدنا نستعموا

ثم شهقت سارة قائلة: لك بصوا، شوفوا نيرمين شو عم تتخيل، عم تبوس ولد، يا فضيحتا وقت يلي يتعرض هاد التسجيل الجمعة الجاية

ثم قالت تريز: يا ترى مين بيكون هاد الولد، في واحدة منكن بتعرفوا، كنت مفكرة يلي اتخيلتوا هو ابشع شي، بس طلع في ابشع

شانتيل: بنات ما تنسوا، احنا لشو جايين ع الغرفة، بدنا نمحي يلي اتخلينا، بأي وقت راح توصل الام دومينيك

ثم حاولت الفتيات اللعب في الجهاز، الذي كان شبيه جداً بأجهزة الراديو والتليفزيون، ولكن محاولاتهن راحت عبث، فلم تتمكن أي واحدة منهن من معرفة أماكن محو التسجيلات، من ثم اضطررن إلى إعادة الجهاز إلى مكانه قبل أن تصل الأم دومينيك إلى مكتبها، عادت الثلاث فتيات خائبات الأمل إلى غرفتهن، وقبل النوم تسألت كل واحدة منهن عن المدة التي قضتها في تخيل ما يمكن أن يتسبب في فضحهن، حتى أتى يوم الجمعة التالي، جاء الاب شربل بصحبة الأم دومينيك ومعها الجهاز وعلى وجهه ابتسامة سعادة ورضا لكن حسبتها الفتيات ابتسامة شماتة بهن لاستطاعة اختراق افكارهن.

جلست كل فتاة بمقابل الأخرى ونظرن إلى بعضهن في قلق وريبة، بدأت الام دومينيك تسرد للأب شربل ما حدث طوال الأسبوع الماضي وأنها لاحظت تغييرات كثيرة في سلوك الفتيات وأنهن لم يتركن أنفسهن بلا عمل حتى يبتعدوا عن التخيلات الآثمة، أثنى الأب شربل على أداء الفتيات وابتسم لهن تلك البسمة الباردة وقال أنه سيعرض ما بالجهاز دون أي تعليق منه أو من الام دومينيك ثم قام بتشغيل الجهاز.

بدأ يعرض الجهاز صوراً مشوشة وغير مكتملة، بدا أن أصحابها لم يستغرقوا في الخيال كثيراً لكن رغم ذلك هناك صوراً كانت واضحة، فلسوء حظ شانتيال ظهرت صورتها وهي ترتدي بدلة رقص فوق مسرح كبير ورغم أن الصورة لم تستغرق سوى عدة دقائق الأ ان الفتيات جميعها كتمن ضحكاتهن، وأحست شانتيل بالخجل من نفسها وكذلك من نظرات الاب شربل والام دومينيك الصامتة لها، وعرض الجهاز صوراً أخرى لخيالات باقي الفتيات، فالجميع قد تفاجأ من رغبة زميلتهن نايا في السرقة وأنها دائماً تحاول كبح جماح رغبتها تلك وكذلك بعض المواقف السخيفة التي تخيلتها بعض الفتيات بها تهكم واضح على معلماتهن ولحسن حظ سارة وتريز لم يعرض الجهاز لهن شئ، واكتفى الاب شربل ومعه الام دومنينك بنظرات الخزي والخجل في أعين طالبتهن ثم انصرفوا على وعد باللقاء يوم الجمعة القادمة

****

حين حل المساء تجمعت سارة وتريز بجانب صديقتهما شانتيل التي كانت تبكي بشدة خاصة بعد ما اصرف الاب شربل وجاءت كل فتاة في المدرسة تتهكم عليها ونظرات المعلمات الساخرة منها، نظرت شانتيل إلى صديقتيها وقالت في تحدي واضح.

_أنا ما فيني اتحمل مسخرة البنات كمان جمعة.. هاد الجهاز مو لازم يضل بالمدرسة

سارة: طيب شو بدك نعمل يعني، ماحنا حاولنا نمحي الصور وماعرفنا

شانتيل: فينا نسرقه، نكسره.. اي شئ اي شئ

تريز: انت هلأ غضبانة، برأي بلا ما تحكي كتير قبل ما الجهاز يسجل صورتك وانت عم تكسريه

شانتيل: انتوا التنتين مانكن حاسين فيا، كرمال الجهاز ما سجل اي شئ ليكم

سارة: مين قالك مو حاسين فيكي، احنا الاتنتين مرعبين من اللي صار اليوم، مو بس إحنا، كل البنات ارتعدوا من اللي صار يوم

جففت شانتيل دموعها ثم قالت: لكان انتوا شو بدكن هلأ

ابتسمت سارة وقالت لهن: أنا معي الحل، بس ما فيني قوله هلأ، بكره بعد الدوام بنتقابل بالجنينة عند الشجرة الكبيرة وبقلكن

نظرت لها تريز وشانتيل في ترقب ثم تقابلا في الغد عند الشجرة الكبيرة مثلما قالت لهن سارة، تجمعت تريز وشانتيل تأخرت سارة قليلاً حتى اتت مبتسمة الوجهة، سألتها شانتيل عن سر ابتسامتها العريضة، قالت سارة: بنات بتعرفوا ليش الجهاز عرض صور مشوشة لجميع البنات ماعدا أنا، ميشان هاد شوفوا

نظرت تريز وشانتيل لها، حيث أخرجت سارة من حقيبتها القلادة الخاصة بالجهاز قالت شانتيل: شو يعني، ما فهمت

قالت سارة: هيدي مش السلسلة يلي عطتني ياها الام دومينيك، هيدا وحدة طبق الأصل منها، انتوا بتعرفوا اني بحب اعمل شغل بالايد لهيك صممتها، لهيك ما ظهر شي على الجهاز بيخصني، لان السلسلة الاصلية كبتها بالزبالة، ولهيك حتى تريز عرض الجهاز صور مشوشة اليها بس مو مفهوم منها شي، وهيك باقي البنات اما انا ف ما ظهر شي غير وش وش، كنت خايفة الام دومينيك والاب شربل ياخدوا بالهن يوم الجمعة الماضية، بس ما انتبهوا على شي، لهيك جبتلكم سلسلتين تلبسهون، راح ندفن السلستين الأصلتين تحت الشجرة

أبدت تريز وشانتيل إعجابهن بفكرة سارة العبقرية، وبعد أن دفن السلستين الأصليتين وارتديا ما صنعت لهن سارة، شعرتا باطمئنان كبير حتى أتى يوم

الجمعة، خافت الفتيات أن يكشف أمرهن لكن لم يكتشف الاب شربل أو الام دومنينيك ما حدث ولم يعرض الجهاز سوى وش لا يفهم منه شيء، أما باقي الفتيات فقد عرض الجهاز لهن صوراً واضحة جداً على عكس ما هو متوقع، فيبدو أن محاولات الفتيات في صرف أذهانهن عن التفكير في أي شيء مشين جعلهن أكثر انغماساً فيه، اكتفى أيضاً الأب شربل بتلك النظرة المعاتبة وربما الشامتة للفتيات وانصرف في صمت، حتى تكرر الأمر في الأسابيع التالية، وبصورة كبيرة، وقد لاحظت المدرسات أن الطلبات أصبحن يسهمن كثيراً حتى آثر ذلك على تحصليهن الدراسي، كما كثرت المشاجرات بين الفتيات بسبب تندرهن على خيالات بعضهن، وكذلك أصبح العنف ظاهرة مستجدة في المدرسة، فبشكل ما قد تجرأن الفتيات كثيراً بعد ما تم عرض ما تخليتهن، خاصة الفتيات التي عرف عنهن الخجل الشديد، فاجتمعت الام دومينيك مع معلمات المدرسة وقررن ما يلي أن هذا الجهاز أضراره أصبحت تفوق منافعه، لذا سيبلغن الاب شربل حين يأتي أنهم لا يرغبن بوجود هذا الجهاز في المدرسة، لكن قبل أن يأتي الاب شربل لأخذ الجهاز، كانت شانتيل قد استعمت إلى حوار بين أحد العاملات في النظافة بالمدرسة وهن يتحدثن عن قرار الام دومينيك الجديد، فاجتمعت بصديقتيها تريز وسارة وأخبرتهن أن عندها خطة ما، لكن سارة رفضت بشدة الاشتراك في تلك الخطة اما تريز فقد وافقت بشرط أن لا يتسبب ذلك في إيذاء احد أو ابتزاز أي شخص، انصرفت سارة عنهن وذهبت تريز وشانتيل لتنفيذ خطتهن في مكتب الأم دومينيك، وفي الأسبوع التالي أعلنت الام دومينيك أن الجهاز لن يتم استعماله مرة أخرى داخل المدرسة وتهللن الفتيات كثيراً بهذا القرار

****

في العام الدراسي التالي قامت تريز بتوزيع روايتها بعنوان "أسرار البنات" والتي فازت في المسابقة الادبية في المدرسة، لكن زميلات تربز في الصف الدراسي لم يبدو إعجابهن بالرواية بل على عكس تم الهجوم عليها بشدة نظراً لأن أحداث الرواية تدور في مدرسة داخلية ومع فتيات في نفس أعمارهن، وقد كانت حجتهن أن شخصيات الرواية فاسقة وتصور الفتيات بشكل غير مهذب، وهو الأمر الذي تعبت منه تريز وشانتيل جداً، وذلك لأنهن يعلمن أن تريز قد استخدمت خيالات الفتيات بعد أن سرقت شانتيل الجهاز العام الماضي أثناء إرساله للتخلص منه بعيداً في أحد صناديق مخازن المدرسة بعد أن رفض الاب شربل آخذه وطلب من الام دومينيك الاحتفاظ به وذلك لرغبتها في التسلية بمعرفة خيالات الفتيات خاصة وأن الفتيات لم يتخلصن من القلادة الخاصة بالجهاز فنسوا أمرها تماماً واستعملهن كقلادة عادية، وتسألت تريز عن الفجوة الكبيرة بين خيال الانسان

ورغباته وبين قيمه الأخلاقية للحد الذي لا يجعله يتعرف على خيالاته، وكذلك عن كراهية الادب والفن الذي يعكس للمرء حقيقته الذي يسعى جاهداً لنكرانها.

الحكاية العاشرة: الخائن

أحب الدراما كثيراً، عندما كنت طفلة كانت معظم أوقاتي أقضيها في مشاهدة المسلسلات، أعيش في كل قصة كأنها قصة حياتي أنا، وحين كبرت أكثر قليلاً بدأت أقرأ القصص والروايات، فلتهب خيالي بتلك الحكايات

_ راوية راوية.. ماكوتيش القميص لية

سمعت صوتاً قادم من بعيد، إنه صوت زوجي ينادي، يا الله قد نسيت كي قمصان زوجي

_هو انت هتفضلي مهملة كدة لغاية امتى، ما تردي عليا، ولا مش قد المقام.. ده انت محظوظة اني جوزك، لو واحد غيري ماكنش استحملك ده كله

استمعت إلى تقريع زوجي لي في صمت حتى غادر المنزل، وعاد المنزل مملكتي الخاصة، قمت بتشغيل التليفزيون، أحضرت قناة الأغاني، استمعت إلى الأغاني وأنا أقوم بغسل الأواني المتسخة في الحوض، ثم هممت إلى وضع الطبيخ على النار واثناء ذلك تناولت هاتفي، فتحت تطبيق الفيسبوك، فتحت صفحة يوسف كعادتي، أتصفح ما كتب وأين ذهب ومن علق عنده؛ وإذا رأيت تعليق لإحدى الفتيات ذهبت داخل صفحتها لأعرف مَن هي، فيوسف لديه الكثير من الصديقات الفتيات لكن لحسن الحظ ليس لديه حبيبة وقد تأكدت من ذلك مما يكتبه ثم من داخل صفحات الفتيات عنده؛ أذكر إني قضيت ثلاثة أيام والقلق يأكلني حين كنت أرغب في معرفة مَن هي عبير الذي يكتب لها قصائد غزل يومياً؛ إذ بي في النهاية اكتشف أنها والدته، فضحكت من نفسي كثيراً حينذاك، بدت لي إنسانة مثقفة وراقية، طبيعي أن تكون كذلك وهي والدة يوسف، يا الله ما هذه الرائحة يبدو إني نسيت الطعام على النار.

****

كانت مفاجأة حقاً، وضع يوسف لي إعجاب على ما كتبت، في اليوم التالي، كنت ذاهبة لأتبضع بعض المشتريات لمنزلي، وأنا في متجر البضائع قابلت يوسف، عرفته على الفور كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها يوسف في الحياة الحقيقية وليست الحياة الافتراضية كعادتي، إذ به ينظر إليّ أيضاً، كان هو الآخر يتبضع بعض حاجات منزله، ألقى ابتسامة في وجهي، تسمرت في مكاني، لا أعرف ماذا افعل، يجب أن أبدو ودودة أكثر، يا الله إنه يقترب مني، إنه يخاطبني وهو ينظر في عيني.

_راوية.. راوية مش كدة، أنا يوسف، إحنا friends على فيسبوك مش كدة

حادثني ببسمة على وجهة، بدا حينها مهذباً وودوداً، حاولت أنا أبتسم مجاملةً له، لكن بسمتي كانت مصطنعة، لم أستطع أن أكون طبيعية حينها، فشعرت أن يوسف قد أحس بالخجل، فستأذن وذهب بعيداً، واستاءت أنا من نفسي كثيراً، حين عُدت إلى منزلي، مسكت هاتفي المحمول وأرسلت له رسالة على الخاص كتبت فيها إني سعدت جداً بلقائه لكن لدي خجل اجتماعي هو الذي مانعني من أن اكون ودوده معه حين قابلته، أرسل لي "إيموجي يبتسم" قائلاً

_كنت حاسس انك مش طايقني، وإني سخيف اوي، بس خلاص أنا فهمت ان مكانش قصدك.

سعدت جداً برسالته، ظللنا نتبادل الرسائل فيما بعد، أوضح لي إنه معجب بما أكتبه، وإن أفكاري تنال إعجابه منذ فترة طويلة، وظللنا نتناقش سوياً في أمور الحياة المختلفة، شعرت أن أخيراً هناك أحد يفهمني ويشعر بي ويقدرني بعكس زوجي الذي دائماً ما كان يهملني ويشعرني إني لا أفهم شيء

_راوية.. راوية بتعملي اية كل ده عندك، كل ده واقفة قصاد الدولاب تختاري الهدوم اللي هتخرجي بيها

أخرجني نداء زوجي من أفكاري، لقد نسيت موعد زيارتنا لزوج اخته العائد من السفر للترحيب به.

ذهبنا هناك رحبت بنا منال أخت زوجي وقالت لي أن أخت زوجها هيام موجودة أيضاً، ودعتنا أن نجلس معها قليلاً حتى تحضر بعض الطعام لنا، كنت أعلم أنه كانت هناك علاقة عاطفية جمعت بين زوجي مصطفى وهيام منذ كانا في الجامعة، لكن أصر أهل هيام على تزوجيها رجل غني يعرفانه لأن مصطفى حينها كان شاب في بداية حياته لا يملك شيء، وجدت نفسي بشكل لا إرادي أقارن بيني وبين هيام، وكانت دائماً تكسب المقارنة فبدت إمراه مكتملة الأنوثة بعقل راجح ولسان طليق، وكنت أنا على النقيض أبدو فتاة صغيرة خجولة منطوية على نفسي، بدأ مصطفى يتحدث معها كأني لستُ موجودة حتى استرسلا في الحديث إلى حين سألها بغتةٍ

_ أومال جوزك فين، هو مجاش معاكي

_جوزي مين، أنا اتطلقت من سنة

صُعقت حين سمعت ردها، وعندما علم مصطفى أنها مُطلقة بدا منفتح معها أكثر في الحديث، ربما لم يخجل من أن يغازلها مغازلة صريحة أمامي، أما أنا فلم أفعل شيء سوى أنني جززت على أسناني بضيق، نظرت نحو مصطفى بنظرات عاتبة؛ إن كانت هي قد طُلقت، فأنت لازلت متزوج، لكنه لم يتوقف لذا غادرت مجلسهم متحججة بأني سوف أساعد منال في المطبخ، ظل الوضع كذلك طيلة السهرة، لم يضع مصطفى أي اعتبار لوجودي، كان يلقي النكات على هيام وهي تجامله ضاحكة ضحكة رنانة وأنا لا أفعل شيء سوى أن أجز على أسناني حتى عدُنا إلى منزلنا، في اليوم التالي أشغلت الشاشة التي في منزلنا وأشغلت الحلقة الأخيرة من مسلسل سارة والتي تُقرر فيها شخصية سارة العودة مرة أخرى إلى وضع الجنين وترك هذه الحياة بعد أن تكتشف أن هذه الحياة غير عادلة وأن الظلم أكثر من العدل والشر أقوى من الخير يحاول حسن جاهداً أن يُثنيها عن قرارها هذا لكنها تُصر على العودة وبالفعل تعود وابدأ أنا بمشاهدة ذلك والبكاء مع سارة وعليها وأشعر أني قد توحدت بها، ثم أسمع صوت زوجي قادم من بعيد مُنادياً اسمي لا أجيب، فيكرر نداءه ويأتي إلى حجرة الجلوس، يجدني أجلس أمام الشاشة وأبكي بحزن شديد.

_هو انت غاوية نكد.. الحاجات دي هي اللي بتكآبك

أنظر إليه بعدم إهتمام ولا أجيب، ثم أسمعه يقول

_ يلا عايزين نفطر أي حاجة

عقب تناول الإفطار وخروج زوجي، ذهبت لأخرج كيس القمامة من منزلي، فوجدت يوسف أمامي حيّاني قائلاً

_إية ده انت ساكنة هنا

_ من زمان.. انت عزلت هنا

_النهاردة أول يوم ليا في العمارة، يعني خلاص هانبقى جيران

ابتسمت له، رأيت في عينه أنه يرغب في أن يُحادثني كثيراً لكني لم أفعل شيء سوى أني ابتسمت له وعُدت إلى منزلي

****

بعد شهر، كنت أنظف غرفة نومي، وجدت أمامي هاتف مصطفى، شعرت برغبة في أن أفتحه وأعبث به قليلاً، وضعت الهاتف أمام وجه زوجي النائم ثم فُتح،

بدأت اعبث في الرسائل، كان هناك اسم واحد فقط أبحث عنه، اسم هيام، وجدته أخيراً، فقد أخفاه زوجي في الأرشيف، فتحت المحادثة مُصعدة إياها، شعرت بطعنة في قلبي حين رأيت كم يغازلها زوجي بشكل صريح ثم رأيت رسائل لم أفهمها حتى استنتجت أن هذه الرسائل بها انطباعاتهم عقب مقابلة بينهم، رغبت في البكاء لكن تمالكت نفسي وأكملت تقليب في المحادثة حتى استنتجت أنهما خرجا عدة مراتٍ، لكن ما كنت أفكر فيه هل حدث بينهم علاقة كاملة أم لا، أحسست أن زوجي بدأ يفيق تركت الهاتف من يدي وخرجت من الغرفة سريعاً.

****

في المساء، أمام الشاشة في حجرة الجلوس أدارت الحلقة الأخيرة من مسلسل آسيا، تتحدث هذه الحلقة عن غرق ابن آسيا حيث تعود لها الذاكرة بعد جلسات العلاج النفسي فتصرخ منى ذكي في مشهد مهم لها وهي تقول "انا قتلته.. ماعرفتش اطلعه.. اجيبه منين دلوقت.. اجيبه منين" ثم نرى كيف غرق ابنها أمام عينها ولم تستطع فعل شيء حيث تغلق السيارة على قدمه حتى لا يستطيع أن يتنفس فيموت الطفل ومن شدة الصدمة تفقد ذاكرتها، ظللت أعيد مشهد صراخها وبكاءها الهستيري، ثم جاء زوجي ونظر لي في استياء.

_وبعدين في المسلسلات دي

_بحب اتفرج عليها، عايزة ابكي

_ ما تشوفي حاجة كوميدي.. بدل الغم ده.. شغللينا اللمبي كدة

لم أجيبه ونظرت إلى الشاشة وأكملت بكاء

****

يوسف جالس أمامي في أحد المطاعم الفاخرة بدا وسيماً كعادته خاصةٍ في سترته البيضاء الجميلة، نظرت له وأنا أتأمل جمال عيناه وقلتُ

_وبعدين اتطلقت.. ماقدرتش استحمل أكتر من كدة

_ أنا حاسس بيكي عشان مريت بتجربة شبيه باللي بتحكيه، فضلت بعدها متعقد بتاع خمس سنين

_ بس أنا وضعي مختلف، قرار الطلاق مكانش سهل، تعبت أوي عشان أهلي وأمي بالذات يقبلو ان بنتهم تبقى مُطلقة.. دي حاجة مش سهلة

_ هو قرار شجاع منك طبعاً، بس انت دلوقتِ المفروض تركزي في حياتك الجاية، ناوية تعملي إية

_ أنا كان نفسي أكمل دراسات عليا، ونفسي اشتغل

نظر لي يوسف وابتسم ثم قال

_ رواية هو انت عندك صحاب

صمت قليلاً ثم قلت

_لا.. أو كان عندي أيام الدراسة.. بس دلوقت كل واحدة فينا انشغلت في حياتها وبيتها.. لا.. لا ماعنديش صحاب

ثم سمعت صوت مصطفى قائلاً

_ راوية.. راوية.. عمال انادي عليكي من بدري وانت كالعادة سرحانة ومسهمة

_ عايز إية يا مصطفى

_مش هناكل ولا إية

_طيب.. جاية

****

عقب أسبوع، وأنا أتصفح تطبيق الفايسبوك وجدت فجأة خبر خطبة يوسف، آه يا قلبي، شعرت أنها خيانة لي، تحطمت كل آمالي وبدأت أبكي

****

_ وبعدين.. حسيتِ بإية يا راوية

_ اتخنقت.. كان نفسي يفضل كدة، كنت عارفة ان اننا مش هنرتبط بس على الأقل يعني يفضل موجود كدة، أنا عارفة انك مش هتصدقيني بس حسيت بالخيانة

_ راوية.. إنت مفيش أي علاقة بينك وبين يوسف، هو مجرد صديق عندك على الفايسبوك

_ بس أنا بحبه

_ أنتي حبيتي صورة رسمها عقلك عنه، انت كنتي طول الوقت عمالة تتخيلي انك في علاقة معاه عشان مش قاردة تواجهي مشكلتك الحقيقية، ان مصطفى خانك، انت بتهربي من الواقع بالخيال

نظرت إلى الشاشة أمامي كنت أحادث معالجتي النفسية لكن فجأة ظهر أمامي يوسف

_ انت بتيجي هنا يا راوية

_ آه.. بقابل المعالجة بتاعتي.. صحيح مبروك على الخطوبة

أتى صوت مصطفى من بعيد

_يلا يا راوية عايز آكل

ثم أكمل يوسف قائلاً

_ الله يبارك فيكي.. المهم انت عاملة إية

_ الحياة بعد الطلاق مش ساهلة بس أكيد ماكنتش هعيش مع واحد خاين

ثم سمعت صوت مصطفى مرة أخرى قائلاً

_ وبعدين يا راوية عايزة أنزل.. هتفضلي سرحانة ومسهمة كدة كتير

أخرجني صوت مصطفى من خيالاتي فقمت أعد له الطعام، وبدأ يأكل هو

نظرت له

إنني لا أحبه

أكرهه

أحب يوسف

إنني خائنة

لكن ما يوسف سوى طيف في خيالي، واني أخونه في الخيال ويخونني هو في الواقع، إنه الخائن الحقيقي.

الحكاية الحادية عشر: شريك حياتي

نحن، أنا وهي وآخرون جمعنا شيئاً واحد حُب الفن، عشق المسرح، إنه المرض الذي لا نرغب في أن نشفى منه، لا نعلم حقاً ما هذا الذي يفتنا إلى هذا الحد، ربما ندمن تصفيق الجمهور، الجمهور الجالس أسفل خشبة المسرح، عيناه معلقتان على الواقفون فوق، حين كنت صغير كنت أنظر إلى فوق وأحلم إني فوق، هذا ما أتى بي هنا، وهذا ما أتى بها هنا، هنا المسرح لكن حلم الصعود على خشبة المسرح لم يتحقق بسهولة كما كنا نظن حين كنا صغار.

****

مصر منتصف السبعينات

أنا الفتى القروي القادم من الريف مبهور بأضواء المدينة وقبة المسرح، حين كنت صغير رغبت في أن أكون ممثل، وحين كبرت قليلاً أدركت أن التمثيل ليس سوى المرحلة النهائية من الطبخة، لذا أردت أن أكون الطباخ نفسه، حينها كنت لا أفعل شيء سوى الحلم، في البداية كنت محتاج إلى الأموال، هذا ما جعلني أقبل أن أعمل مُلقن في المسرح حتى تأتي الفرصة وأصبح كاتب مسرحي، وكانت هي فتاة جميلة، أذكر أول مرة التقينا فيها، وكانت إحدى الفتيات المتقدمات للعمل في المسرح، مثلها مثل كل الفتيات التي يأتين إلى المسرح تحلم أن تكون ممثلة، ترغب في أن تكون جذابة وملفتة، لافت نظري أرجلها، كان لديها رجلان جميلان، وأنا كنت من عشاق السيقان الجميلة، وهي نقطة ضعفي، والسبب في أن يكون لدي هذه العادة المُشينة التي تكونت عندي فيما بعد، كنت أتسلل إلى أحد الثقوب المؤدية إلى غرفة تغيير الملابس للممثلات، أسترق النظر إلى الممثلات وأبدأ في تقييم كل ممثلة منهن في عقلي، فأصبح رئيس لجنة مسابقة ملكة جمال سيقان في الممثلات، والمنافسة كانت شرسة بينهن، لكن سميحة هذا اسمها كانت تفوز دائماً.

****

دخلت إلى هذا المسرح وأنا فتاة يافعة، كنت أحلم أن أكون هناك ممثلة ليس هذا فقط بل أيضاً مطربة فقد كان صوتي شجي، كنت حينها متيمة بشادية ولازالت الحقيقة فقد تغيرت أشياء كثيرة فيا عدا حبي لشادية فقد ظل كما هو على الرغم من انقضاء سنوات كثيرة على هذا الحلم، لا أرغب سوى أن أصبح مثل شادية ممثلة ومطربة، كنت أتعمد أن ألفت الانتباه إلي بشتى الطرق، فقد كنت أختار ملابسي بعناية شديدة ألوان مبهجة وقصيرة تَسر الناظر إليها، وقد كانت هذه سمة ملابس هذا الزمن، وبالفعل تمكنت من لفت الانتباه لي، انتباه مخرج العمل، لقد منحني

الأستاذ اهتمام خاص، كنت وقتها أشعر إني طائرة وكأن لي جناحين، لكن مع ذلك لم يَكن في كلامه شيء يمكنني التشبث به، ف كلام الأستاذ رقيق ناعم ينساب كالهواء لكن لا أستطيع أن أمسك مما يقول كلمة واحدة تعني هدف معين، لكن أذكر ما كان يقوله لي حين يحب مغازلتي.

_ أحلى ابتسامة شوفتها في حياتي ابتسامتك... انت عارفة لو الواحد شايل هموم الدنيا وشاف ابتسامتك هينسى كل الهم.. المفروض تمثلي في السينما، الشاشة هتبروز جمال ابتسامتك

أستمع إلى كلماته بنشوى، فتصبح أجمل ما أسمعه في يومي، وحين يصمت عني يوماً، أتساءل إن كنت ارتكبت خطأ ما، جعل الأستاذ ينفر مني.

وفي أحد الأيام، كنت داخل غرفة تغيير ملابس الممثلات، مالت إلى أذني تفيدة وقالت :

_ أبقي خدي بالك وانت بتغيري، اللي ينشك في قلبه فوزي ملقن الفرقة ساعات بيبص على البنات

فوزي كانت هذه أول مرة أعرف فيها اسمه، أو ربما قد سمعته من قبل لكن لم اعطي له اهتماماً، لم أكن حينها أتخيل أن فوزي سيكون هو شريك حياتي.

****

بدا يشاغلها المخرج، كنت أعلم ذلك أنها الفريسة الجديدة له، هكذا كانت عادته، يتصيد الفتيات الصغيرات اللاتي جئن إلى المسرح من أجل حلم التمثيل، كنت أرى هذا الفيلم بشكل معتاد، لم أكن أفهم لماذا يفعل هذا الأستاذ، وإذا كانت المتعة هدفه فأنا أعرف إنه له نساء لمتعته الخاصة، لكن ماذا يكسب من ربح قلوب فتيات صغيرات ثم كسرها، حتى علمت بعد العشرة معه، إن نفس هذا الأستاذ المنتفخ لا يملأها سوى نظرات الإعجاب والإبهار من فتيات صغيرات في السن لا خبرة لهن في الحياة، فيكون لهن الأستاذ يغدق عليهم نظرياته وآراؤه وتفتح كل فتاة فاها أمامه سعة علمه وثقافته وأضحك سراً وأنا أسمعه كل مرة يعيد نفس الكلام فلم يكن في حياته كلها قد قرأ سوى كتابين أو ثلاثة، دائماً ما يستشهد بهم، كنت أنا أكثر ثقافة منه، لكن الحظ اللعين، فأنا لا أملك وجاهة الأستاذ ولا كلماته المعسولة ولا جرأة حتى أحادث فتاة، حين قرب الأستاذ من سميحة زهدها بعد مدة بسيطة، حينها بدأت أراقبها أنا، كانت متحيرة، تائهة مثل عصفور لا يعرف مكان العُش، ربما

شعرت أنها جرحت في أنوثتها، حاولت أنا حينها أن أتقرب إلى ملكة جمال سيقان المسرح سميحة لكن كنت أشعر في داخلي إني لا أعجبها.

****

مضت سنوات على دخولي المسرح، مازالت ألعب الادوار الصغيرة، فقت من زمان من أوهامي بإعجاب الأستاذ بي، وإني لم أعد أكثر من ممثلة في المسرح، بدا وقتها يتقرب مني فوزي ملقن الفرقة، كان بدين، قصير القامة بشكل ملحوظ، مشيته بها اعوجاج بسيط مع انف مفلطحة بشكل ملحوظ، كنت أتندر عليه كثيراً أنا وباقي الفتيات لكن لأني كنت وحيدة أرغب في أن يسمعني أحدهم، تقربت منه، أخبرني إنه مثلي لديه حلم وينتظر فرصة كي يصبح كاتب، حين سألته ألم تعرض أياً مما كتبت على الأستاذ، فرد إنه فعل ذلك مراراً لكن لم يُعجب الأستاذ بأي شيء مما كتبته، لكنه لم يخبره بأنه سيء كذلك، لكن يجب أن يطور من نفسه وكتاباته أكثر، كان ذلك أيضاً قريب مما يُقال لي إنني ممثلة جيدة لكن لستُ جيدة بالدرجة التي تكفي لأصبح بطلة، كان هذا ما يجمعني بفوزي الحلم الذي لم يكتمل.

****

مرت الأعوام، كبرت وأدركت مسافة بُعد حلمي عني، يبدي إني سأقضي حياتي كلها أسفل الخشبة ألقن الفنانين، لكن وجودي في المسرح كان يكفي، يكفيني أن أشم رائحة الفن وإن لم أصنعه بنفسي، كذلك يكفيني أشم المتعة من بعيد دون أن تذوقها وأنا أراقب الممثلات وهن يغيرن ملابسهن، حتى فاجأتني والدتي أنها تريد تزويجي، رفضت بشدة، لا أدري لماذا كنت أرفض الزواج، أسترق المتعة بالنظر، لكن لا أود أجربها بنفسي، حتى قررت أن أتزوج أخيراً لكن لن أتزوج فتاة من بلدتنا بل سأزوج فتاة بيضاء جميلة، ذات سيقان فاتنة، أتزوج سميحة لم لا .

مرت الأعوام بدأت أشعر بتهديد وخوف، جميع صديقاتي من أيام المدرسة تزوجن وأنجبن عدا أنا أطارد حلم مجهول لا أدري إن كان سيتحقق أم لا، ردد عقلي كلمات والدتي لي ستصبحين وحيدة حين تكبرين، يجب أن ألحق القطار، قطار الزواج والإنجاب، فكل فتاة منا يجب أن تلحق مقعد في هذا القطار لا يهم مع مَن أو إلى أين نذهب لكن يحب أن نلحق بالقطار، حينها طلب فوزي يدي، فوزي انه لا يثير إعجابي كما أنه لا يثير نفوري أيضاً، طالما وافق أن اظل أعمل في المسرح لم لا.

****

تزوجت انا وسميحة، كانت لازال لديها بقايا أمل وراء حلمها القديم، أنها جميلة فعلاً وحين أسمع صوتها تغني أدرك أن لها صوت طربي جميل لكن هذا كله لا يكفي لأن تكون نجمة، حينها أيضاً بدأت اكتشف عيوب سميحة، لقد كانت تعاني من العصبية الشديدة، فحين تغضب من شيء ما تفقد القدرة على التحكم في أعصابها وترميني بكلمات وألفاظ جارحة لكن هذا لم يكن يحدث أمام أحد، فقط ونحن بمفردها لذا كنت أتجاوز عن إهانتها لي، لكن ما كان يضايقني حقاً، هو أنني علمت أنها تتندر علي وهي مع زميلاتها الممثلات، لقد أثار حنقي أن تتخذني زوجتي مادة للسخرية، يبدو أنني أخطأت أعجبت بساقي فتاة فتزوجتها كلها.

تزوجنا أنا وفوزي قبلت به عملاً بنصيحة والدتي ظل رجل خيراً من ظل حيطة، لكن لم يكن في حسباني، أن هذه الحيطة ستضعني في مواقف حرجة، فقد كنت أستمع إلى الفتيات يتهامسن أنه يراقبهم وهن في غرفة تغيير الملابس، كنت أظن أننا بمجرد أن نتزوج سيكف عن هذه العادة المخجلة، لذا كنت أثور عليه، محاولة أن أجعله يكف عن هذه العادة المشينة، وأنه بعد زواجنا قد أصبح هذا يقلل مني أمام الناس، يبدو أنني نسيت حين تزوجته أنني سأتزوجه بعيوبه أيضاً فلقد كان كسول جداً، متردد وسلبي غير قادر على أتخاذ أي قرار ولو كان بسيطاً.

****

مرت السنوات بدأت سميحة تقبل أن حلمها في أن تصبح نجمة لن يحدث، لكنها بدأت تجري خلف حلم آخر، حلم الأمومة، في بداية زواجنا لم تكن سميحة مهتمة بموضوع الإنجاب لكن بعد مرور سنوات دون حدوث حمل، بدأت تخاف أن يَمر العمر دون إنجاب طفل، ظلت تذهب من طبيب إلى طبيب، بينما لم أكن أنا مهتم بهذه المسألة قدر اهتمامي في أن تكف سميحة عن إلحاحها، وقد تغيرت معاملة سميحة معي، فحاولت استدراجي للعلاقة الزوجية بيننا حيث كانت فيما قبل حين تغضب مني أو ترغب في أن أنفذ لها أمراً ما، أن تُهمل في نظافة نفسها وترك شعر جسدها عمداً حتى أنفر منها لكن الآن من أجل هذا الطفل اقتربت مني سميحة كنت أحرج منها لكني لا أود أن أجرح أنوثتها فقيم معها علاقة لكن كل ذلك لم يساعدني أن أتوقف عن عادتي المشينة تلك، حتى حدث ما غير حياتي، في أحد الأيام كنت أتلصص على بطلة العرض فتاة تصغرني بسنوات عديدة لكنها أصبحت بطلة العرض، لا أدري كيف رأتني، ورأت البلل في ثيابي، حتى صرخت في وجهي

وارتفع صوتها حتى أتى جميع العاملين في المسرح بما فيهم زوجتي سميحة وهي تقوم ببهدلتي وإذلالي ثم قالت للمخرج:

_ هو أنا مش قولت مش عايزة اشوف الراجل ده، ياخي عيب على شبيتك لما تبص عليا وأنا بغير هدومي وينزل منك القرف ده، انت فاكر نفسك فين، اومال اذا ماكنتش متجوز، انت لازم تمشي من هنا

استمعت إلى كلماتها وأنا منكس رأسي، للحظة تلاقت عيني مع عين زوجتي، رأيت في عينيها نظرة عار وخزي، إن كانت كذلك تشعر فلا ألومها، فقد كنت أشعر بما هو أكثر من العار، فقد كنت متجرد ومكشوف وكأني عريان، احمر وجهي خجلاً مني وانتهى الأمر بتركي العمل، رأف المخرج بحالي وحاول مع المنتج والنجمة أن لا يطاراني، لكني كان يجب أن أذهب لم يَعد لي مكان في المسرح، لا أستطيع أن أرفع وجهي في وجه زملائي بعد الآن وبالفعل تركت المسرح بينما ظلت سميحة تعمل فيه، فقد كنا في حاجة إلى المال.

توقعت أن تخجل مني سميحة، فقد كنت أعرفها تتعز بنفسها وكرامتها جداً لكنها سامحتني ووجدتها فرحة فأخبرتني أنها حامل وأنني والد طفلها القادم لذا لن تتركني وحيداً.

****

بعد الفضيحة التي صارت في المسرح لم يستطع فوزي أن يستمر في العمل داخل المسرح حفظاً لماء وجهه، بدأ يحاول أن يعطي دروساً في اللغة العربية، لكن ليس هذا التغير الوحيد الذي حدث لفوزي، فقد لاحظت أنه بدأ يلتزم ويصلي لكن بشكل مبالغ فيه فأصبح يقضي وقتاً طويلاً في الوضوء وكذلك يأخذ أكثر من ساعتين في الاستحمام حتى أناديه بنفسي ليخرج من الحمام، حتى أنا زوجته لم يعد يقترب مني الا نادراً كأني أصبحت محرمة عليه، لا أدري ماذا حدث له فكأنما أصبح يشعر أنه دائماً غير طاهر منذ ما قالت له نجمة العرض على المسرح، الذي مازالت أعمل فيه كممثلة في الأدوار الصغيرة، حتى في يوم كان هناك عرض لمسرحية ريا وسكينة، ذهبت هناك وقابلت شادية، يا الله لقد كبرت شادية بشكل ملحوظ كما كبرت أنا، طلبت منها صورة للذكرى، وأخذت الصورة معي كمن وجد كنز، ذهبت إلى منزلنا وأخبرت فوزي إني رأيت شادية بنفسها لكنه لم يهتم بما أقول كأنه لم يعد يسمعني، قمت بوضع الصورة في برواز واحتفظت بها حتى الآن، واستمرت حياتي أنا وفوزي، مع الوقت كف فوزي عن عاداته الغريبة في الوضوء والاغتسال لوقت طويل جداً لكن ظل شخص ملتزم وعمل مدرس للغة العربية وأنا

أيضاً قد تركت المسرح وبدأت في أخذ دروس في الدين ثم تحجبت، وأنجبت أنا وفوزي ولد يدعى يوسف وفتاة جميلة اسميتها شهد وبعد عدة سنوات توفت أختي فأتت ابنتها نور وأصبحت تعيش معانا في منزلنا، كان كل شيء على ما يرام حتى عرفت إني مريضة بسرطان الثدي ويجب أن أجري عملية لاستئصال الثدي.

****

بعد أن كبر الأولاد لم يعد في حياتي سوى زوجتي وتدريس اللغة العربية وأولادي حتى عرفت أن سميحة مصابة بسرطان الثدي، حين قالها الطبيب شعرت أن قلبي قد اختلع من مكانه من خوف، سميحة لا.. كيف ستكون حياتي أنا واولادي بدون سميحة، قمت باقتراض مبلغ عملية سميحة من كل شخص يمكن أن أستلف منه، حتى اجمعت المبلغ، لكن كان لدي مشكلة أكبر كيف أقنع سميحة أن تُجري العملية وهي معتزة جداً بأُنوثتها وقوامها، لكن كان يجب أن أقنعها

_ أنتِ خايفة من إية.. إنتِ عارفة أنا أصلاً أتجوزتك لية.. عشان كنت معجب برجليكي، أي حاجة تانية بقى ماتهمنيش

ابتسمت سميحة نصف ابتسامة ساخرة فأكملت

_ ولا أنتِ فاكرة إني هقولك عاجبتني ابتسامتك ولا سحر ضحكتك وعينيكي والكلام الصايص بتاع الأستاذ ده

ابتسمت سميحة في ضيق حاولت إخفاءه لكن في النهاية اقتنعت ان تجري العملية الجراحية، فيما بعد أصبحت أذهب معها جلسات العلاج الكيمائي، لقد كانت تتعذب أمامي غير قادر على فعل شيء لها سوى أن أطيب بخاطرها بكلمتين، وهي كانت حمولة تتحمل تعب المرض بصمت وتغطيه بابتسامة حزينة أمام أولادنا، حتى مَنّ الله عليها بالشفاء، لكن سميحة قد تغيرت جداً بعد هذه الأزمة، أصبحت متشددة بعض الشيء في تربية الأولاد، يومياً لا أسمع سوى صوتها وهي تتشاجر مع شهد بنتنا لأن ملابسها لا تعجب سميحة، وحين كنت أتذكر ماذا كانت تلبس سميحة وهي في عمر شهد كنت أضحك من سخرية القدر، وحتى أن في أحد المرات قالت شهد لوالدتها أن ملابسها التي لا تعجبها لا تساوي شيء بجوار ملابس سميحة في فترة السبعينات، لتجيب سميحة ردها المعتاد:

_ الزمن بقى غير الزمن

كنت أعرف في داخلي أن سميحة اعتقدت بعد محنة مرضها، أن الله عاقبها على ملابسها الفاضحة التي كانت تلبسها في شبابها لذا كانت متشددة في تربية ابنتنا، أخبرتها كثيراً أن لا تُثقل عليها

_ أبقي خفي على البنت شوية، أنا لسة سماعها بتقول لصاحبتها خايفة أكبر وأبقى زي ماما، انت بقيتي بعبع بالنسبة لها، سكتت سميحة ثم قالت

_ أنا بعمل كدة عشان خايفة عليها

****

كبرت وبجواري كبر فوزي وكبر أولادنا، جلست أنا وفوزي نشاهد التلفاز سوياً، كانت تُعرض مسرحية "ريا وسكينة" ملت قليلاً نحو فوزي وقلت له

_ فاكر المسرحية دي.. أنا حضرتها بنفسي وقتها.. يوم ماتصورت مع شادية

_ الا فاكر.. دي انتي الفرحة ماكنتش سايعكي يوميها

_ بس معقول تبقى دي نهايتها.. زمان كان نفسي أمثل على خشبة المسرح وأديني النهاردة أخري أقعد على الكنبة بحضر المسرح

ابتسم فوزي محاولاً التخفيف عني

_ دي أحلى حاجة في جوازنا قعدة الكنبة دي

بينما كنا نتحدث أنا وفوزي دخل يوسف ابننا، كان يبدو إنه ينوي أن يخبرنا شيئاً حتى فجر المفاجأة

_ أنا النهاردة قدمت في معهد الفنون المسرحية قسم تمثيل

سهمت أنا وفوزي لما سمعناه لكني تفاجأت من رد فعل فوزي القوي، قامت مشاجرة كبيرة بينهم، صمم فوزي أن يترك يوسف المعهد لكن أصر يوسف على قراره ثم ترك البيت بدلاً من أن يترك المعهد، يا الله هل لعنة حب المسرح ستظل تجري خلفي أنا وأولادي، كنت أعرف أن سبب غضب فوزي الكبير هو خوفه أن يصبح يوسف مثله، غادر يوسف المنزل ولم يعد منذ أكثر من شهرين، تذكرت حين كنت أسعى للخلفة وأذهب لعدة أطباء، ألم يكن خيراً لي أن أكون عاقراً، على أن يكون لي ابناً لا أعرف له مكاناً وحين عاتبت فوزي عن ما فعله قالي لي

_ أنا بعمل كدة عشان خايف عليه

ثم في النهاية قبل فوزي بالأمر الواقع، ولم يسعنا سوى أن نتمنى أن يصبح حظ ابننا افضل منا، وبعد سنوات تزوجت ابنتي ثم ابنة اختي وغادرتا المنزل، أما يوسف فبعد إتمام دراسته، بحث عن منزل مستقل حتى يكون قريب من المسرح الذي يعمل فيه، ولم يعد في المنزل سوى أنا وفوزي ونحن نشاهد التلفاز سوياً

أجلس بجواره على الأريكة وأمامنا التلفاز ويمسك بيدي ثم نضحك سوياً على إحدى المسرحيات المعروضة.

الحكاية الثانية عشر: الموت يصل غداً

تدور أحداث قصتنا تلك في سوريا في عام ٢٠١٤ عقب قيام الازمة السورية وأبطال قصتنا هم ثلاثة فتيات الكبرى فيروز تبلغ من العمر اثنين وعشرون عاماً والوسطى نجلاء تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً والصغرى ريما سبعة أعوام وقد توفى والدهم منذ عدة سنوات وترك لهن محل بقالة تديره والدتهم السيدة نوارة البالغة من العمر أربعة وخمسين عاماً، وقد ورثوا عن والدهم محل بقالة تديره والدتهم لكن الآن ذهبت الأم لتجد مشتري له ثم سوف تحاول إيجاد مشتري للمنزل وبذلك يمكن أن تجمع المبلغ المطلوب كي تسافر هي وبناتها خارج البلاد

****

فيروز الابنة الكبرى منذ اندلاع الحرب وقد سيطر عليها وسواس الموت، بعد ما نزلت قذيفة على بيوت أصدقائها وماتوا وقد أصبح صوت الهاويات والقذائف معتاد في الشوارع نظرت إلى أختها نجلاء وقالت

_ إمك اتأخرت كتير.. خايفة يكون صاير معها شي

لم تجبها نجلاء وبدا أنها لم تسمع ما قالت لها أختها، فقامت فيروز بخلع نعلها ورمته على أختها صائحة

_ هاي عم بحكي معك

اهتز جسد نجلاء قائلة

_ لك فزعتيني

_ عم قلك إمك إتاخرت برة.. خايفة يكون صاير معها شي

_ إختي انت بس حدا فينا يخرج بتدي تخافي وتفكري انه صاير معه شي ونزلت قذيفة على راسه، قال يعني القذائف بتنزل في الشارع بس، وهون الأمان بيخزي العين.

أثناء حديثهما دق باب المنزل، ذهبت فيروز لتفتحه قائلة

_بلكي تكون إمك رجعت

وحين فتحت الباب، لم تجد أمها بل وجدت العم بسام وقد عرفت إنه قادم كي يشتري بعض متطلبات بيته من محل البقالة الخاص بهم

_ أهلين عمو بسام.. كيفك

_منيح يابنتي انت اشلونك واشلون إمك وإخواتك

_ بخير عمر.. إتفضل ادخل

_ لا بنتي ما بدي تقل عليكن بس بعذبك معي بدي هاي الطلبات من محلكن

ثم أخرج ورقة صغيرة وأعطاها لفيروز مكتوب بها طلبات منزل، أخذتها منه وسألته

_ إيه بس انت ما دفعت مصاري الطلبات يلي خدتن امبارح وكمان أول امبارح، يعني هلأ كمان مو شايفة معك مصاري

_ معلش بنتي الحالة هاليومين وافقة، انتي بتعرفي إني كنت بشتغل مصور والمنتجين هلأ بطلوا ينتجوا شي، أو بيروحوا على بيروت، بس يطلبون حدا بشي فيلم أو مسلسل، راح اسدد كل شي، واذا ما اخدت شكك، والله راح انا ومرتي وولادي من الجوع

صمتت فيروز برهة ثم قالت

_ ماشي عمو.. تكرم عينك.. هلا بجهزلك الاغراض

وهي داخلة متجهة إلى محل البقالة في أحد غرف المنزل غمزتها نجلاء وهمست قائلة

_ لك شو عم تعملي.. هاد مع عم يدفع شي

_ اه غصباً عنه.. مانك شايفة الحال واقف مع الكل

_ اي إختي ماحنا من ضمن هاد الكل يلي الحال وافق، لك إحنا في عرض كل فرانك

_ إختي الناس كل يوم عم تموت.. بلكي بنموت بكرة.. على الأقل بنطلع لربنا ونحنا عاملين شي لآخرتنا

_ هاد إذا موتنا.. لكن إذا عيشنا راح نكون بحاجة مصاري

_ إذا عيشنا بنكون سافرنا متل ما إمك مخططة وزيحي عديني من هون إتاخرت على الرجال بدل ما شغل الشحاطة تاني

ثم ذهبت فيروز وأحضرت طلبات العم بسام وشكرها وذهب

بعد دقائق سمعوا صوت ريما وهي تصرخ وجاءت تجري إلى أخواتها، نظرت لها الفتاتان في ذُعر ثم قالت ريما

_ قذيفة قذيفة

ثم دخلت أسفل الطاولة، زفرت نجلاء في ضيق

_ مو كل ما تسمعي صوت قذيفة تيجي تتخبي تحت الطاولة، لكي شو عم يعملوا ولاد الجيران يلي بعمرك بيروحوا بعد كل قذيفة يعدوا الشظايا تبعتها

نظرت لها فيروز في حنق

_ نجلاء لا تتمسخري على أختك، هي من وقت يلي ماتت فيه رفيقتها ميسون، صارت هيك

ثم ذهبت في فيروز إلى المطبخ وأحضرت غطاء أحد الحلل الكبيرة وأعطته لريما قائلة

_ حطي هاد فوق رأسك ميشان إذا نزل الهاوي لا يأذيك

فأخذته ريما ووضعته فوق رأسها ثم نظرت نجلاء باستهزاء إلى فيروز

_ والله يا فيروز خانوم.. مين فينا هلأ عم تتمسخر على أختها

_ أنتِ شو بدك فيها.. خلي هاد الغطا يعطيها إحساس بالأمان ولو مزيف

قُطعت الكهرباء

_ يا الله النور قطع، ما لحقت اشحن موبايلي

هكذا صاحت نجلاء، رديت عليها فيروز

_ هاد بس يلي فكرت فيه.. ما فكرتِ في أمك يلي ما إجات لهلأ

جاءت ريما تجري خائفة، احتضنتها فيروز فقالت ريما

_أنا خايفة كتير

_ ما تخافي.. راح روح أجيب موبايلي وأفتح الكشاف

وذهبتا سوياً؛ حينئذ تسلسلت نجلاء فوق سطح المنزل لتقابل يزن جارها وحبيبها السري، آخذه جوالها معها مستغلة قطع النور، نظرت عن يمينها ويسارها باحثة عنه

_لك وينه هاد الجحش

حتى ظهر أمامها فجأة، فشهقت خائفة

_ لك رعبتني.. مو اتفقنا كل ما تقطع الكهربا نتقابل هون

ابتسم لها يزن ثم تقدم ناحيتها وقام بتحريك خصلة من شعرها كانت على وجهها ووضعها خلف أذنها ثم همس فيها قائلاً

_ اشتقتلك كتير

ثم اقترب يزن من أنفها حتى شعرت نجلاء بأنفاسه تقترب منها وقالت بصوت منخفض ورقيق

_ أنا كتير متضايقة.. إمي مصرة تبيع كل شي ونسافر

اعتدل يزن ورجع إلى الخلف وزفر بضيق قائلاً

_ إن شاء الله ما تلاقي حدا يشتري منها البيت والدكان.. أصلا مين معه ليشتري

_ امبلا في.. هلأ راحت لحدا حتى تبيع الدكان.. وبعدين مو كل الناس خسرت مصاري بالأزمة.. في ناس اغتنت منها

بعصبية شديدة سألها يزن

_ شو بتقصدي بهاد الكلام.. بتقصدي أبي.. ما هيك.. أصلاً ما وفقت عليكن.. كل الحارة عم تقول أبي تاجر حرب وإنه عم يتربح من الناس يلي عم نتخطف

_ يزن حبيبي.. كرمالي ما تزعل مني

اقترب منها يزن وضمها بذراعيه ولفت هي ذراعيها حول رقبته واقترب من فمها ولامس شفتيه شفاها وبدأ في تقبيلها حتى سمعا صوتاً قادماً من خلفهما ومع كشاف نور سطع أمامها وإذ بها أختها الكبرى فيروز وهي تصيح قائلة

_ لك شو عم تعملي

تفلت نجلاء من حضن يزن لها ويتراجع يزن كام خطوة إلى الخلف، تنظر فيروز إلى يزن وهي تقول

_ يا عيب الشوم عليك.. والله لخبر أهلك

_ لا تفهمينا غلط يا فيروز.. أنا بحب نجلاء وبدي اتجوزا.. بس ترجع امك وببقى اطلب ايدا

تقوم فيروز بخلع نعلها ثم ترميه عليه قائلة

_ بلا حب بلا بطيخ.. انقلع من هون

يهرب يزن وتلتقط فيروز نلعها ثم تجر أختها من ذراعيها إلى الطابق السفلي وهي تقول

_ مشي قدامي.. رزق الله لو كانت إمك هون وشافتك

تنزل الفتاتان إلى الأسفل ثم يعود التيار الكهربائي مرة ثانية.. تصيح ريما فرحة

_ إجا النور.. إجا النور.. فيروز بدي أكل جوعانة

تذهب فيروز إلى المطبخ لتعد الطعام لأختها الصغرى ريما وهناك تلحقها نجلاء

_ فيروز الله يخليكي.. لا تخبري إمك بشي

تنظر لها فيروز باستياء ولا تجيب

_ الله يخليكي فيروز.. الله يخليكي

_ إذا كنتي بتعرفي يلي عملتيه غلط.. ليش عمليته

(صوت قذيفة)

ريما تصرخ ثم تختبئ أسفل الطاولة مثلما علمتها فيروز

_ لك مانك سامعة أصوات القذائف بكل مكان.. ما فكرتي كيف بدك تقابلي الله

تصمت نجلاء قليلاً وهي تساعد في أختها في رص أطباق الطعام ثم تقول بعد تردد

_ إختي راح قلك شئ بس انت ما راح تفهميني

_ شو بدك تقولي.. قولي وخلصينا

_ أنا اصلا قبلت بوسه.. لأني مو ضامنة أعيش، كل يوم عم نسمع عن حدا بيموت من القذائف حتى يلي بيسافروا مو كلهن بينجوا، في اللي بيموتوا في العبارات.. ما قدرت.. خوفت موت بدون ما بوسه.. فكري هيك.. راح نعيش حياتنا ونموت دون بوسة واحدة

_ بالله شو.. إذا هيك الناس تمشي تعبط وتبوس في بعض لان ممكن يموتوا في أي وقت

تخرج فيروز ومعها نجلاء ويضعن الاطباق على السفرة ثم تنادي نجلاء على ريما كي تأكل معهن، وتبدأ الفتيات الثلاثة كل واحدة تأكل حتى تقول فيروز

_ ليش إمي إتاخرت كل هالقد.. ليكون واقعت عليها شي قذيفة.. مين موبايلها مشحون

تجيب نجلاء

_ أنا لسة بدي أشحنه

أما ريما تقول

_ أبقوا اشترولي موبايل كرمال اشحنه

تجيبها فيروز

_ اخرسي انتي.. شوية ببقى شوف موبايلي وأكلمها.. وإذا ما رديت، بلكي أطلع دور عليها

تعلق نجلاء

_ لا فيروز.. الله يخليكي.. خليكي معنا

ثم تقول ريما

_ ما تتركيني لحالي

****

عقب تناول طعام العشاء نهضن الفتيات وقامن بترتيب الطاولة وقامت نجلاء بغسل الصحون في المطبخ أما فيروز ظلت تتصل بأمها دون أن تتلقى أي رد فصاحت قائلة

_ قلبي نإذيني يا بنات.. أمكم ما عم ترد

لترد عليها نجلاء من المطبخ

_ لا ينشغل بالك إختي.. يمكن فضيت البطارية.. بتعرفي إمك بتنسى تشحت موبايلها

_ مانت على قلبك مراوح.. مو شايلة هم غير هم التبويس ومادري شو

ثم تحاول الاتصال مرة ثانية لكنها تكتشف أن رصيدها قد خلص فتصيح

_ يا الله خلصت وحداتي.. هلأ شو بعمل

تذهب وتقف أمام المطبخ

_ نجلاء فصعونة.. ما معك وحدات.. أكيد هاد القرد يزن عم يعبيلك وحدات، لكان كيف عم تحكوا

_ وحداتي خلصوا إختي.. وأنا ويزن متفقين بس يقطع النور نتقابل

_ يا ما شاء الله عليكوا.. لك النور بيقطع اكتر ما بيجي

****

بعد انقضاء نصف ساعة

تاتي ريما إلى فيروز أختها

_ فيروز الله يخليكي بدي نام.. خايفة أنام لحالي تعي نامي معي

_ انا بدي ضل هون على الباب استنى إمك

_ تعي نامي معي وبس ماما تيجي تبقى تدق الباب

زفرت فيروز بضيق

_ ماشي.. مشي قدامي

ثم تذهبان إلى غرفة ريما، تنام ريما في المنتصف وفيروز على يمينها، ثم تلحق بهم نجلاء لتنام على يسارها

(تنقطع الكهرباء)

فيروز: يا الله قطعت الكهرباء تاني

ثم تنظر إلى نجلاء قائلة

_ شو جابك هون

_ خايفة نام وحدي إختي، قلت بتونس معكن

_ اي اتونسي معنا.. أحسن ما تتونسي مع يزن

فتصرخ ريما قائلة

_ شو خصه يزن

تضحك فيروز بسخرية وتقول

_ ولا شي بس بيخاف من العتمة

يحمر وجه نجلاء وهي تحاول أن تغير الموضوع

_ تفتكره راح نقدر نسافر من هون.. أنا كتير راح إشتاق للشام

تجيب فيروز

_ ليش وين هي الشام.. ووين هي الحياة هون.. هون ما في حياة.. ياما نموت ع السريع بالقذائف، ياما على بطئ من المي الملوثة والبرد بعد ما قل الغاز والمازوت، هون ما في حياة

نجلاء: خايفة من الموت يا فيروز

فيروز: الموت موجود بكل حتى.. معظم يلي بنعرفهم ماتوا.. كل يوم عم قول لحالي بلكي الموت جاي بكرة، بلكي النهاردة آخر يوم في حياتي

تنظر فيروز إلى ريما تجدها نامت وهي ممسكة بيدها، وتغمض نجلاء عينها وتحاول فيروز أن تنام هي الأخرى وينام الثلاثة بجوار بعضهن.. وفجأة تصرخ ريما

****

عادت الأم نوارة بعد أن وجدت مشتري للمحل وكمان المنزل، ظلت تفكر في الأموال التي جمعتها فوجدت أنها كافية كي تسافر ثم سمعت أصوات عند دخولها إلى الحارة، اتضح أنها أصوات صراخ، يبدو أن هناك قذيفة نزلت في الحارة، ثم عرفت أن قذيفة نزلت على منزلها، بدأت تصرخ وتنادي على بناتها وحاولت أن تنقلهن إلى الإسعاف لكن البنات الثلاثة توفوا في الحال وبقيت الأم وحيدة ولم تغادر الشام على أمل أن يأتي الموت غداً فترى بناتها مرة أخرى، الآن لم تعد تهرب من الموت، بل أصبح الموت هو وسيلة المواصلات الوحيدة كي ترى بناتها.

الحكاية الثالثة عشر: على الطريق

الزحام، الأصوات الصادرة عن السيارات، الضوضاء القادمة من كل اتجاه، الشمس الحارقة، الجو الحار كل هذا يحيط بي وأنا جالسة في سيارتي أنتظر الإشارة كي تفتح، أخرجت هاتفي كي أضيع بعض الوقت في العبث به، وجدت رسالة من رئيس التحرير على تطبيق الواتساب على جروب الجريدة، يرغب في التعجيل في تسليم التقارير الخاصة بنا، كان تقريري عن الأطفال المشردين، فكرة قديمة، لكن يجب أن أبحث عن زاوية جديدة كي أكتب بها الموضوع، وإذ بي أرى طفل صغير في الإشارة مثل جميع هؤلاء الأطفال الذين نراهم يومياً، أتى إلي وطلب أن أشتري منه إحدى علب المناديل الذي يبيعها، لكني فاجأته واشتريت منه كل ما معه وابتسمت له محاولة أن أفتح معه حديث، كانت نظرات الطفل جامدة، ليس بها أي تعابير، لا يبدو عليه الفرح أو الاندهاش أو الحماسة، يا الله يجب أن أعرف قصة هذا الطفل، فجأة فُتحت الإشارة انطلقت بسيارتي وعزمت على أن آتي غداً مرة أخرى وافتح حوار أكثر عمقاً معه.

****

اليوم التالي في طريقي وأنا عائدة من الجريدة، كنت أبحث بعيني عن هذا الطفل، تُرى أين هو، حتى وجدته ظللت أراقبه بنظري حتى أتى لي، ومثلما فعلت أمس طلبت منه أن أشتري كل ما معه، ثم سألته

_ اسمك اية

_ علي

_ اسمك حلو يا علي.. عندك كام سنة

_ مش عارف بس انا عايش بقالي كتير

ذكرتني إجابته بنكتة سخيفة كان يقولها زميلنا نادر في الجريدة لكن الطفل لم يكن بنكت، إنه لا يعلم كم هو عمره، أعتقد إنه لا يتجاوز السبع سنوات، نظرت إلي الطفل ولأول مرة ابتسم، لم أصدق إنه يبتسم لي، لقد خرج عن تعبيراته الجامدة وابتسم لي لمدة ثوانٍ ثم قال

_ وانت اسمك إية

نظرت له وقد وضعت يدي على كتفيه ورأيت كم تغير تعبير وجهه حين لمسته، شعرت في البداية إنه أنزعج من فعلي هذا لكني أدركت لاحقاً حين دققت النظر في وجهه إنه غير مصدق أن أحد لمسه وأجابت سؤاله

_ أنا أسمي أمل.. ممكن نتكلم شوية سوا

نظر لي علي قليلاً وعاد إلى وضعه الطبيعي الوجه الخالي من أي تعبير.. وفجأة جرى بعيداً عني، حينما غلى الدم في عروقي وقلت في نفسي بعد كل ما فعلت معه جرى مني دون أن آخذ أي معلومات منه، وددت لو أنني لم أشتري منه شيئاً.. وددت لو لم أضيع وقتي معه.. وددت لو لم أختار هذا الموضوع المستهلك من الأساس، حتى يمضي الوقت إلى أن تفتح الإشارة وأنا داخل سيارتي قمت بتشغيل بعض الأغاني ولمحت من بعيد علي وهو ينظر لي، ظللت أنظر إليه، تمنيت أن يأتي لكنه لم يكن يأتي، زفرت ضيقاً به محدثة نفسي

_ هو أنا هشحته.. ده أنا كنت هساعده.. يلا مش وش نعمة

حينها رأيت علي يتقرب مني، ابتسمت له عله يتشجع ويأتي لي ولكنه ظل ينظر لي في بلاهة حتى وددت صفعه

_ ما تخلص بقى يالا.. ماكنتش حتة موضوع اللي هيحوجني أتعامل مع الأشكال دي

لكني حافظت على ابتسامي له، وجدت يتقرب ببطء نحوي، سعدت بذلك، لكن الإشارة قد فُتحت، ظلت السيارات من خلفي تزمر لي حتى أتحرك لم أستطع أن أقف وأتحدث معك يا علي، ربما نتحدث معاً غداً وابتسمت له كي أودعه إلى اللقاء يا علي

****

في اليوم التالي وقفت في تلك الإشارة أبحث عن علي بنظري حتى وجدته، ابتسمت له تشجيعاً له حتى يأتي لي، لكنه لم يتحرك، ضاق خلقي منه، لكني ظللت ابتسم له، حتى أخيراً حن عليّ وأتى، وكالعادة اشتريت منه كل ما معه قائلة في نفسي

_ على الله يتطمر ويحكي

أعطته المال وابتسمت له وقلت

_ ينفع نحكي مع بعض شوية

وجدت أن عينيه بها تعبير لأول مرة لكن لم أستطع أن أفهمه وفجأة جرى بعيداً عني، حتى صرخت في سري

_ آه يابن الكلب

ظللت على هذه الحالة الغاضبة مدة عشر دقائق وأنا أتساءل كيف طفل صغير يخدعني هكذا.. فجأة سمعت نقرات على زجاج سيارتي، نظرت إذ بي علي، وددت نهره بشده على وضع يديه المتسختان على زجاج سيارتي لكني انتبهت أنه قادم لي ومعه طعام، يبدو أنه أشتراه من المال الذي أعطيته له، ثم أخرج جزاً منه وقدمه لي على سبيل المشاركة، حاولت أن أخفي قرفي من يديه المتسختان وشكرته بلطف على كرمه معي، ثم كررت طلبي مرة أخرى أن نتحدث سوياً، نزلت من سيارتي بعد أن ركنتها وتمشيت معه قليلاً، وكنت حذرة جداً، خوفاً من أن يسرق حقيبتي أو الهاتف الذي أسجل به الحوار وسألته

_ أنت بقى يا علي بتنام فين لما تخلص شغل

أشار إلي إلى الرصيف قائلاً

_ بنام هنا

_ لية فين بيتك

_ سيبته من زمان

_ لية سيبته

_ عشان جوز أمي بيضربني جامد

_ طب ومامتك

_ بتضربني هي كمان

انتبهت إلى النبرة التي يتحدث بها تبدو كأنها نبرة كبار وليس طفل وأكملت

_ طب جبت منين المناديل اللي بتبيعها

_ في راجل بيجي يوزعها علينا.. وبعدين يشوف بيعنا قد اية

_ تعرف اسمه

_ لا ماعرفش

_ طب وبتكسب كويس من بيع المناديل

_ لا.. مش كتير.. معظم الناس لما بروح عشان أبيعلهم، محدش بيرضى يشتري واللي بيشتري قليل، بس أغلبهم محدش بيعبرني، يعني بفضل أمشي وراهم بعلب المناديل بس هما مش بيصولي زي ما يكونوا اتعموا مش شايفني ولا اطرشوا مش سامعين.. انت بس اللي بصيتي عليا

فجأة شعرت بطعنة في قلبي، لقد شعر الطفل أنني الوحيدة التي شعرت بوجوده، فالجميع يتجاهله وكأنه لا يراه، حتى أنهم لا يرفضون الشراء منه بل يتجاهلون وجوده بشكل كلي بينما كنت أنظر إلى هذا الطفل وأبتسم له من أجل أن أجري معه تقريراً صحافياً لكني في العادي أفعل مع هؤلاء الأطفال مثلما يفعل الجميع التجاهل التام خجلت من نفسي ثم أكلمت الحوار وسألته

_ طيب بتاكل منين، قبل ما اشتري منك العلب كلها، كنت بتجيب أكل منين

_ في ناس بتعمل معايا حاجات وحشة بس بعدين بيدوني أكل

_ حاجات وحشة ازاي

أشار إلى عضوه الذكري وقال

_ بيمسكوني من هنا

ذُهلت الطفل يتم التحرش به، أخيراً وجدت الزاوية الجديدة الذي سأتناول منها موضوع أطفال الشوارع ثم سألته

_ طب وانت بتبقى حاسس بإية

_ ببقى متكدر بس برضى عشان ببقى جعان وعايز أكل

سرحت بخيالي قليلاً علي اليوم ضحية لكنه سيكبر غداً ويصبح مثل المتحرشين به سيتحول مع الوقت إلى مجرم ومتحرش، تنهدت بحزن ثم طلبت منه

_ علي ينفع أصورك

صمت قليلاً ثم أجاب ماشي

قمت بتصويره ثم ذهبت في اليوم التالي إلى الجريدة وأنا مختالة بنفسي فقد أجريت تقريراً عن أحد أطفال الشوارع الذي يتم التحرش به، نلت إعجاب رئيس

التحرير وفي الطريق وأنا عائدة استعمت إلى بعض الأغاني المفضلة في سيارتي، وإذ بي أجد طفل قادماً فجأة نحوي دون أن أدري أدهسه بسيارتي، حين نزلت وجدت ان هذا الطفل هو علي، آخر تعبير رأيته على وجهه هي ابتسامة، نعم قد ابتسم علي أخيراً، ربما لتحقق أمنيته حيث حصل على اعتراف الناس بوجوده، فقد تجمهر حول سيارتي العديد من الناس ناظرين إلى علي المهشم الموجود على الأرض نازفاً وأخيراً نظر الناس له

وقد أخرجني المحامي فيما بعد نظراً لأن الطفل أتى إليّ، وتذكرت ابتسامة علي الوحيدة وقتئذ كأنما يصفح عني ما فعلته معه وكأنه يريد أن يقول أنا من فعلها، أنا الذي أردت أن يعترف الناس بوجودي.

الحكاية الرابعة عشر: السارقة

عند مراجعة الكاميرات وجدت السيدة فاتن حفظي ما لم تتوقعه حيث رأت منى تختلس من مال الخزينة، وما يحير أكثر أنها فعلت هذا وهي تعلم أن المكتب به كاميرات وهي مراقبة، استنتجت من ذلك السيدة فاتن أن منى لا يمكن أن تكون خططت للسرقة، وأيضاً عقب مرور عشر سنوات من العمل مع منى صدقي وهي التي تعتبرها الموظفة المثالية، لم ترد السيدة فاتن أن تتخذ موقف رسمي وتحول منى للتحقيق لذا حاولت أن تحل الموضوع بطريقة ودية وتحاول استرجاع ما أخذ من الخزينة قبل أن يدري أحد، ومن قسم شؤن العاملين تعرف عنوان منى وتذهب إلى منزل منى.

****

قبل ثلاث أيام

تستيقظ منى في موعدها في السادسة صباحاً، تغسل وجهها واسنانها وتعد الفطار لها ولزوجها وابنتها البالغة من العمر خمس سنوات، تصلي للرب وتشكره على أنه أعطاها يوم جديد تحيا هي وأسرتها، قبل أن تخرج من المنزل تسقي الأزهار التي في منزلها، حين تخرج من باب عمارتها وترى عمال النظافة فتحرص أن تحافظ على نظافة الشارع كي لا تتعبهم وتقوم بوضع أي ورقة لا تريدها داخل حقيبتها حتى تجد سلة قمامة قريبة وكذلك تربي ابنتها، وإذا قابلت أي متسول في الطريق تعطى له ما تقدر عليه، توزع الابتسامات على كل من تقابله، في أحد الأيام وجدت قطة مريضة في أحد الشوارع، قامت بآخذها إلى ملجأ للقطط حتى تُشفى هناك وكذلك إذا وجدت أي حيوان مريض في طريقها لا تتركه حتى تطمئن أنه سوف يشفى، وحين رأت ابنتها تعبث بالماء، أخبرتها أننا يجب أن نحافظ على الماء فغيرنا لا يجده لذا يجب أن نرشد استهلاكنا من الماء وكذلك الكهرباء، وقد استبدلت الأكياس البلاستيكية الضارة بالبيئة بأخرى ورقية مفيدة للبيئة، حين طلبت منها ابنتها أن تشتري أكل جاهز من أحد المطاعم رفضت منى ذلك، فقد حاولت أن تأكل طعام صحي دائماً هي وأسرتها، ثم وصلت ابنتها إلى المدرسة، وتابعت طريقها إلى العمل فقد كانت تحرص دائماً أن لا تتأخر في الوصول إلى عملها، وعندما وصلت إلى مقر عملها في الموعد المحدد، وزعت ابتسامتها لمن معها في عمل، بعد قليلاً جاءت نشوى صديقتها تطلب منها أن تأخذ دورها في الجمعية لأنها في حاجة شديدة للمال، فوافقت في الحال كي تساعد صديقتها وكذلك طلبت منها صديقتها سعاد مبلغ بسيط على سبيل السلفة ووعدتها أنها سوف تُرد إليها ما أخذته منها، فوافقت منى في الحال وطلبت منها أن لا تهتم أن تعيد إليها

المبلغ وما يَهُم الآن هو أن تفك ضائقتها المادية، وهكذا كانت منى محبوبة من الجميع، حتى جاء إليها هاتف من معمل التحاليل حينها تغير حال منى وغادرت المكتب في ذلك يوم وقد شعر الجميع أن هناك خطبً ما مع منى.

****

عادت منى إلى منزلها بعد زيارتها إلى معمل التحاليل وهي في طريقها للعودة قابلها محتاجين لكنها لأول مرة رفضت أن تعطي أحداً شيئاً، حين ألح عليها أحد المتسولين صرخت في وجهه:

- لقد كففت عن فعل الخير

ثم جاءت إليها جارة من الجيران تعودت أن السيدة منى تعتني بالحيوانات ومعها قطة مريضة لكن على غير العادة رفضت منى إيواء هذه القطة المسكينة وصرخت في وجه جارتها:

- ما خصني بها، أبعديها عني.

وحين ذهبت كي تقضي بعض حاجات المنزل طلبت أن تأخذهم في أكياس بلاستيكية مثل باقي الناس، غير مهتمة بشؤن البيئة، ثم حين وصلت منزلها قامت بتشغيل التلفاز بأعلى صوت وبعدها قررت أن تطلب أكل من الخارج بالرغم من كونها كانت دائماً ترفض دخول هذه المواد إلى منزلها، أشعلت أضواء المنزل كله وفتحت جميع الصنابير، رغبت في أن تهلك كافة الموارد البيئية من ماء وكهرباء، حتى أنها فكرت أيضاً في التدخين، ثم ذهب تفكيرها بعد ذلك إلى أن تجرب شرب بعض الخمور، فكرت في كل ذلك والأضواء الكثيرة في أرجاء المنزل وكذلك الضوضاء القادمة من التلفاز مع دموعها المنهمرة على وجنتيها وفي يدها اليمنى قطعة بيتزا من الخارج ويدها اليسرى سيجارة تجربها لأول مرة في حياتها والكثير من الأنين الصادر عن صدرها وبكاءها المتقطع.

****

حين وصلت السيدة فاتن نبيل إلى منزل منى تفاجأت أن لا أحد هناك وحين سألت الجيران دلوها على مكان المستشفى التي ذهبت إليها منى لترافق ابنتها التي اكتشفت انها مريضة بسرطان الدم، لم تستوعب السيدة فاتن المفاجأة، إذاً قد احتاجت منى مبلغ مالي لمساعدة ابنتها، قررت وقتئذ أن تذهب لمنى في المستشفى وتحاول أن تسوي الموضوع ودياً معها

****

توصلت السيدة فاتن أخيراً إلى الغرفة التي بها منى وابنتها، نظرت إلى منى، أنها ليست منى التي تعرفها أين ابتسامتها التي توزعها على الجميع، وجه شاحب مع نظرة عيون جامدة ليست حزينة ومكسورة كما توقعت بل جامدة

_ منى حبيبتي، حزنت كثيراً لما جرى لك ولابنتك

هكذا تحدثت السيدة فاتن في رقة أما منى فأجابت بلا مبالاة

_ لا داعي لهذه المقدمة.. إنك هنا من أجل الأموال الناقصة في الخزينة.. نعم أنا من أخذتهم

تفاجأت السيدة فاتن من حديثها واقتربت منها وقالت برقة

_ إن كنتِ في حاجة إلى الأموال، لماذا لم تخبريني بذلك من قبل، كنت سأتصرف لكِ في المبلغ

نظرت لها منى بأعين جامدة وقالت

_ لكن أنا لستُ بحاجة إلى المال

_ إذاً لماذا أخذت المبلغ من الخزينة وبهذا الفعل سيحاسبك القانون لتبديد عهدتك

_ لماذا يحاسبني أنا.. ألم أكن الموظفة المثالية، ألم تقولي لي هذا مراراً وتكراراً

_ نعم بالفعل كنتِ كذلك، لكن لماذا يا منى

_ أخبريني أنتِ لماذا.. لماذا إنسانة جيدة مثلي تمرض ابنتها وتنتظر موتها، لقد كنت جيدة طيلة الوقت، أعطي الفقراء والمساكين، أساعد الحيوانات الجريحة، لا أرد محتاج، أعامل زملائي بلطف، لا أحرج أحد، لا أتأخر عن موعد عملي، لا أفوت صلاة، ملتزمة بكل تعاليم ديني ومجتمعي، أحافظ على الكهرباء والبيئة حتى أساعد في إنقاذ الكوكب، لكن أي كوكب هذا الذي لن تعيش فيه ابنتي، ابنتي التي كنت أفعل كل ما في وسعي كي تكون بصحة جيدة، أحرمها من الأكل من الخارج وكل ملذات الحياة لأنها غير صحية تمرض وغيرها لا.. جاوبيني لماذا إذاً

هنا أدركت فاتن أن منى سرقت المال ليس لأنها تحتاج إلى المال بل على سبيل الانتقام.. الانتقام من قيمها التي لم تحميها من الوقوع في ألم كبير كألم مرض ابنتها الوحيدة

_ اسمعيني يا منى.. نحن حين نفعل الخير نفعله لاقتناعنا بأن هذا هو الصواب، وليس لأن فعل الخير يجعلنا لا نتعرض للشر في هذه الحياة، إنكِ بالفعل موظفة مثالية وأيضاً إنسانة مثالية، لكن هناك عيب واحد فيك أو ربما نقول إنه معتقد طفولي جواك، أننا حين نفعل الخير سنكون دائماً بخير، أننا حين نكون أشخاص جيدين ستحدث لنا الأمور الجيدة فقط، أنتِ لديك قيم عليا جميلة لكن تعتقدين أن هذه القيم المثالية هي السياج الذي سيمنع عنك الأذى، أن وجودنا في هذه الحياة يعني أننا ضمنياً سنتعرض إلى الأذى سواء كنا أشرار أم أبرار، أما موضوع مرض ابنتك بالرغم من حافظك على صحتها، فنحن في هذه الحياة نحافظ على صحة لأنها أمانة من الله، وليس كي نأخر الموت أو نهرب منه، فالله من حقه أن يسترد أمانته في أي وقت شاء وبالطريقة التي يشاء.

بكت منى على كتف السيدة فاتن، بعد شهر توفت ابنة منى وتم تحويل منى للتحقيق والحكم بالحبس عليها وظلت السيدة فاتن تزور منى وتطمئن عليها.

الحكاية الخامسة عشر: الجانب الآخر

استيقظت صباح يوم جديد، وكالعادة أميرة بجانبي، أتت وهي تحاول إيقاظي

_ يا دكتور.. الجامعة يا دكتور

ثم وضعت بجانبي كوب القهوة الذي أعدته لي كما أحب تماماً وذهبت كي تُعد وجبة الفطار الذي كالعادة سأتركها دون أن أتذوق منه شيئاً فتقطب أميرة حاجبيها معترضة مذكرة إياي بأهمية وجبة الفطور فأذكرها أنا بدوري بأهمية الالتزام بالمواعيد، ثم أتركها وأذهب إلى الجامعة وهذا ما حدث معي اليوم أيضاً، في طريقي إلى الجامعة حيث أعمل دكتور في كلية الهندسة لكن الحقيقة أن هذه لم تكن رغبتي من البداية، كنت أرغب في فتح مكتب خاص بي، أكره روتين عمل الجامعة والبروتوكولات لكن حين تم تعييني كمعيد بالجامعة، شعرت أمي أن هذه الوظيفة مستقبلها آمن كما أن لها وجاهة اجتماعية وهذا أكثر ما كان يهمها، فمنذ أن توفى والدي وتولت أمي تربيتي كانت تحرص دائماً أن أكون الأفضل وكوني أستاذ في الجامعة سيثبت هذا لأعمامي أن والداتي أحسنت تربيتي، وهكذا دائماً منذ كنت طفلاً لا أفعل شيء سوى لأثبت أن أمي أحسنت تربيتي، لقد كنت الطفل المهذب والمطيع والمجتهد، أتذكر حين كنت في الرابعة عشر من عمري، كأي مراهق حاولت أن أجرب السجائر، كانت ردة فعل أمي قوية جداً، ظلت تبكي حين رأت السيجارة في يدي، شعرت إني طعنت أمي في قلبها وهذا ما قالته لي، حينها تركت السجائر دون رجعة، ربما لو كانت عاقبتي بقسوة أو حتى ضربتني أهون من شعوري بالذنب الذي شعرته ناحيتها وقتها وبعدها حاولت أمي معرفة مَن هم أصدقائي وانتقائهم بعناية من أجل أن لا يجرني صديق إلى طريق السوء، كذلك منعت التأخير في الخروج إلى وقت كان فيه معظم أصدقائي مستحيل أن يكونوا في منازلهم، أطلقوا عليّ حينها ساندريلا، لكن هل هذا كله يجعلني أعتبر والدتي قاسية، أكون ظالماً أن قلت ذلك، فقد كانت بالغة الرقة، لكن هل يمكن اعتبار الرقة الشديدة نوع من القسوة، أخرجني من زحمة أفكاري هذه صوت صراخ إمراه على الطريق ورأيت إذ به رجل يضربها، ثم تذكرت إحدى المحاضرات التي ألقيتها عن العنف ضد إمراه، لكن للحظة شعرت أن هذا الشخص أكثر رجولة مني، صوّر خيالي إني مكان هذا الرجل وإني أضرب أميرة زوجتي بمثل قوته، ثم وجدت نفسي مستمتعاً بهذا الخيال، كيف ذلك، كيف أستمتع بهذا الخيال وأنا أكثر مَن يقاوم العنف، فجأة توقف صوت الصراخ، وهربت المرأة ثم سمعت الرجل يقول ألفاظ نابية أستحي أن أتلفظ بها، لكن وجدت خيالي قد كوّن صورة سريعة عني وأنا مكان هذا الرجل، لكن هذه ليست أخلاقي، وليست قناعاتي، فالرجولة ليست السب والضرب.

****

في الأسبوع التالي تحدثت أنا ومعالجي النفسي عن هذه الخيالات الغريبة، طلب مني أن أفكر لماذا تراودني هذه الخيالات بالتحديد، وما علاقتها بمفهومي عن الرجولة، وأخبرني سريعاً عن الظل، وهي ما نكبته داخلنا، ولا نريد أن نخرجه وأن كلاً منا، لديه الخير والشر داخله ونحن مَن يختار ماذا يظهر على السطح، والباقي يذهب إلى الظل، سألت نفسي تُرى ماذا يوجد في ظلي، هل هناك شخص آخر ظالم يحب العنف بذئ اللسان، ثم فكرت إني دائماً إنسان مسالم، يدعو إلى نبذ العنف، لكن هل أكون فعلاً مسالم حقاً أم إني لستُ سوى جبان أتدعى حبه للسلام، تُرى هل هي أخلاقي ما تمنعني عن ممارسة العنف والإيذاء، أم هو ضعفي وخوفي الذي اسميته أخلاق، تُرى ما هو سبب إعجابي بهذه الشخصيات التي أقاومها في وعي واحذر المجتمع منها، سمعت صوت هاتفي يرن أنها والدتي، أجبتها في ضيق، كالعادة توبخني على عدم الاتصال بها، وكذلك على تأخيري في العودة إلى المنزل، المواعيد كم أكره المواعيد، كم أكره القوانين التي وضعتها أمي منذ كنت طفلاً، كم تخيلت إني أصرخ في وجهها وأقول بصوت

_ كفاية بقى تحكمات.. انا مش عيل

لكني دائماً كانت تأخذني شفقة بها، فقد كبرت أمي ولم تعد تحتمل، حين أغلقت الهاتف مع والدتي، وجدت رسالة من أميرة زوجتي، فأميرة نسخة مصغرة مع والدتي، لذا وجدت أن ما لا يمكن أن أفعله مع أمي، يمكن فعله مع أميرة.

****

رجعت هذه المرة متأخر، لم أكن أعرف إلى أين أذهب، كانت هذه هي حريتي، لكني لم أكن أعرف كيف استخدامها لذا دخلت أماكن متعددة، أجلس في كل مكان برهة ثم أغادره إلى غيره، كنت كأني طفل استطاع لأول مرة أن يخطو، كم كنت سعيد لكن متوجس، فليست هذه عاداتي، حين رجعت إلى المنزل، وجدت أميرة كما توقعت، نظرات صامتة معاتبة، كان هذا أول عقاب منها سحبت ابتساماتها مني، لذا لم أهتم بها تركتها متجهاً إلى غرفة النوم حيث كنت أرغب في النوم أكثر من أي شيء آخر، حين وجدت إنني لن أقدم اعتذارات لها، جاءت هي وفتحت معي الحدث

_مش عادتك تسهر برة

لم أعرف كيف أجيب، فلم يعلمني أحد بماذا نجيب زوجاتنا حين نسهر، لم تخرج مني سوى كلمة

_ أسف.. مش هتأخر تاني

لم أعرف كيف قُلت هذا وأنا أنوي على استعادة حريتي التي أخذت مني، ولكن ليريحها هذا الرد قليلاً فتنام وأنام أنا

****

في اليوم التالي استيقظت مبكراً قبل أن تصحى أميرة وحاولت لأول مرة أن أعد الطعام، فلستُ طفلاً صغيراً، بعد عدة دقائق جاءت أميرة وقالت بنبرة مستفهمة

_ بتعمل اية هنا

_ ولا حاجة، قلت مرة أعمل الفطار عشان أريحك يوم

نظرت لي وحاولت الابتسام كانت ابتسامتها صفراء، ثم جاءت نحوي وحاولت آخذ الأطباق مني

_ طب سيب حبيبي أنا هكمل

نظرت لها بحدة وقالت

_ لا أنا اللي هكملهم

ربما خافت أميرة من حدتي، لكنها انسحبت وأخلت لي المطبخ، نظرت إلى الطعام وأنا أعده

_ مش هخلي أميرة تشمت فيا، وتبوظ

تأخرت قليلاً ثم قدمت الطعام إلى أميرة، نظرت لي وقالت

_ بس مش غريب تنام بالليل متأخر وتصحى بدري يوم أجازتك

بدأت آكل، لم يكن الطعام سيء كما توقعت وقلت

_ لا مانا مانمتش، لسة بعد ما آكل هدخل أنام عشان ميعاد النهاردة مع صحاب الجامعة

نظرت لي أميرة بدهشة

_ انت هتخرج كمان النهاردة.. هتتأخر

_ يمكن.. مش عارف

قالت بأسى

_ براحتك

كنت أعلم معنى هذه الكلمة جيداً، حين تصدر من أميرة راحتي لن أجدها الا حين أفعل ما يريح أميرة، تبادلت معها بعض الابتسامات الصفراء ثم ذهبت إلى الفراش ونمت وفي المساء خرجت برفقة أصدقائي القدامى وحين كنت معهم شعرت إني غريب عنهم، نعم لقد آخذوني إلى حيث أردت أن أذهب ولكن ماذا بعد، كأني لا أتحدث لغتهم، شعرت بوحدة شديدة في هذا العالم، لكني قررت أن أكمل فيه، بدأت أرى أن بعضهم يدخن، التدخين حلم الطفولة، التدخين رمز الحرية، وأيضاً رمز الرجولة، قلت في إحدى محاضراتي السابقة لا أدري يربط مجتمعنا بين الرجولة وفعل مؤذي كالتدخين، لكن ما رغبت فيه في هذه اللحظة، أن أدخن، أن أشعر إنني قادر على أي فعل شيء وإن كان مؤذياً، لذا دخنت لأول مرة في حياتي.

****

بعد مرور شهر، أصبح السهر عادتي وكذلك بدأت أدخن، كانت أميرة تستشيط غيظاً مني وبدأت الحرب الباردة معي، سحبت ابتسامتها لي وكأنها تعاملني كطفل حين يصبح مطيع، تطبع امه قبلة على وجهه وتدعوه بالشاطر وحين يخطأ تنظر له في تأنيب هكذا كانت تفعل معي أميرة، ومن قبلها ماجدة والدتي، وأخيراً نفذ صبر أميرة، حين فعلت ما لم تستطع ان تتسامح فيه، فقد قمت بشرب الخمر لأول مرة في حياتي، لذا قررت أميرة أن تستعين بذات الخبرة في هذا الشأن والدتي العزيزة السيدة ماجدة المربية الفاضلة، أحضرتها أميرة لترى أي حال وصل له ابنها المصون، نظرت وإذا أميرة جالسة على نفس الأريكة مع أمي، في هذه اللحظة أدركت مدى التشابه بين والدتي وزوجتي، حاولت أن أرحب بقدوم أمي منزلي بابتسامات مصطنعة وعبارات محفوظة، نظرت أمي بحدة لي وقالت

_ ماصدقتش أميرة لما شيكتلي منك، لغاية ما جيت وشوفت بنفسي، إية اللي انت عامله في نفسك ده.. الأستاذ الجامعي المحترم بيرجع بيته متأخر وهو شارب.. أنا ربيتك على كدة

_ ماهي المشكلة كلها في ربيتك دي، إنت دايماً بتتعاملي معايا على إني لعبة في ايدك، على اني الصورة اللي هتقدميها للمجتمع عشان يصقفلك، شوفوا الست الأرملة عرفت تربي راجل محترم ازاي

_ انا مش فاهمة.. دلوقتي بقيت غلطانة عشان كان نفسي تطلع راجل محترم.. أما انت صحيح عيارك فلت

نظرت إلى أميرة الواقفة تستمع إلينا

_ حتى مراتي اللي اختارتيها ليا، نسخة منك، بتعاملني كطفل، لما أغلط رايحة تشتكيه لولي أمره

كسرت أميرة صمتها وقالت

_ كفاية كدة يا أمير.. احترم والدتك وراعي أنها ست أميرة

حين نطقت أميرة، لم يأتي في ذهني سوى صورة واحدة إني أضرب أميرة، اجتاحتني رغبة شديدة في ضربها، في هذا الوقت بدأت أمي تُبكتني على أفعالي بشدة وأميرة تحاول تهدئتها، حين بدا أن المشهد كارثي خرجت وتركت المنزل، ربما كان الهروب هو الفعل الوحيد الذي كنت أجيده، ولأول مرة بيت خارج المنزل يومها.

****

في اليوم التالي حدثتني أميرة على الهاتف لم أرغب في الرد عليها لكن لكثرة إلحاحها أجابتها، عرفت أن والدتي ذهبت إلى المستشفى وأنها هناك، تركت ما في يدي وذهبت إلى المستشفى، في الطريق أرسل لي صديق رابط لخبر يحتوي على صور مسربة للسيد أمير رؤوف المحترم وهو يشرب الخمور في أحد الملاهي الليلية، لم أعلم مَن سرب هذه الصور لي، يبدو أنني نسيت إني شخصية معروفة، فكرت في عملي في الجامعة، هل ستؤثر هذه الصور على عملي، كنت أرغب في أن أستعيد بعض من حريتي المسلوبة، كيف وصل الحال بي إلى هنا، حين وصلت إلى المستشفى رأيت أميرة جالسة أمام غرفة أمي، كانت فرصة لي أن أتحدث معها على انفراد

_ أميرة.. ماما عاملة إية

نظرت لي بغضب مكبوت كنت أعرفه وقالت

_ ماتخافش هاتبقى كويسة

ثم صمتت وبدوري صمت أنا، على الرغم من كوني أرغب في أن أشياء كثيرة لكني صمت ثم قطع الصمت صوت أميرة قائلة

_ على فكرة انت جبان.. ازاي تسيبني انا ومامتك وتمشي

وصفتني بالجبن، محقة، نعم أنا جبان، لذا كانت تعاودني خيالات الضرب والعنف، تخيلت في لحظتها إني أضربها أمام الجميع، لكنني بدلاً عن ذلك وجدتني أقول

_ أميرة انا شايف إننا لازم نسيب بعض.. كل واحد فينا بعد عن التاني

رأيت المفاجأة والصدمة في عينيها ثم قالت

_ لية.. ده أنا اللي المفروض أطلب منك الطلب ده.. عايز تسيبني عشان بحبك وخايفة عليك

ارتفع صوتي حينها قائلاً

_ أنا بكره الكلمة دي بكرهها، خايفة عليا من إية، من الحياة، من الدنيا والتجارب، من الغلط.. سيبني اغلط يمكن اتعلم من غلطي

رأيت دمعة تلوح من عيني أميرة

_ لو مكانتش بحبك.. مكانتش هخاف عليك

_ وأنا مش عايز الحب ده.. ده انت بتخافي لما أختار لابسي وهدومي لنفسي

ارتفعت نبرة صوت أميرة

_ أنا كنت بعمل كدة عشان أريحك

_ وأنا كنت حاسس إنك أمي وإني عيل.. مش حبيبتي ومراتي

تركت أميرة تستوعب الصدمة ثم ذهبت إلى غرفة أمي، رأيتها نائمة، استغليت الفرصة لأعاتبها لكن دون أن تسمعني فأنا لا أريد أن أجرحها

_ أنا النهاردة مابقاش ابنك اللي عامليته، اللي مابيغلطتش، ابنك اللي هتكيدي بيه أعمامي، واللي الدنيا هتديكي تكريم على تربيتك ليه، كنتي عايزاني الابن المثالي عشان تبقي انت الأم المثالية، لكن أنا كنت عايز أبقى عادي، إنسان عادي وبيغلط، أنا ماليش دعوة بحربك مع الناس، ماليش دعوة إنك كنت عايزة تثبيت حاجة لحد،

أنا كان نفسي تشوفيني إني أبنك وتحبيني وأنا مش أعظم ابن، زي مانا بحبك وانت مش أعظم أم

******

بعد شهر

توفت والداتي لكن شكراً لله، فقد صالحتها دون أن تسمع ما قلته لها في المستشفى، فقد كنت أجبن من أن أقول شيئاً ما، عُدت إلى أميرة شكلياً فقط لترضى عني والدتي، لكني مزمع على الطلاق، فلا أريد أم جديدة في حياتي، توقفت عن الشرب والسهر، فهذه ليست أخلاقي لقد كنت فقط أختبر الجانب الأخر من الحياة، أختبر حريتي وقد عادت حريتي لي من جديد وهذا كل ما أريد.

الحكاية السادسة عشر: ١٦ سؤال في الحب

اقترب عيد الحب، يجب أن أفكر ماذا سأتكتب في مقالة عيد الحب، ثم تأملت حياتي قليلاً، مَن أنا لأكتب عن الحب، إمراء جوفاء، تجاوزت ثلاثون عاماً وأعيش بمفردي، لكن حياتي ليست مأسوية فقد لدي عملي وأكسب مالاً جيدة، أخرج وأسافر وقتما أشاء، لكني وحيدة، هناك قُراء ينتظروا تلك المرأة الوحيدة كي تحدثهم عن الحب، أخذت نفساً عميقاً، هل لو كنت تزوجت أحداً مما قابلتهم لكنت الآن أسعد، وجدت أن الإجابة بالتأكيد لا، يبدو أن العيب في أنا، حيث أني لا أرضى بأي وضع، خطرت في بالي فكرة، قررت فتح الفيسبوك، والبحث عن أين وصلوا مَن مروا في حياتي لكن المرة دي من زاوية مختلفة، سأعرف كل إمراه تزوجت شخص كان ممكن أتزوجه كيف تشعر.

****

كونت مجموعة خاصة من النساء من بينهم زوجات الرجال الذين عرفتهم، ثم طرحت سؤال عن مدى سعادة كل إمراه في زيجتها أو مع حبيبها، في البداية تلقيت إجابات مثالية لدرجة الزيف تحكي عن سعادة حياتهن الزوجية وعلاقاتهن وعلى الجانب الآخر تلقيت إجابات سوداوية جداً لا ترى أي خير في الزواج ولا معنى للحب، لم تكن هذه النوعية من الإجابات هي مبتغاي، أنا أرغب في معرفة كلام حقيقي، يجب أن استفز النسوة كي يتحدثن أكثر، حتى وجدت سؤال يمكن أن يستفزهن، أيتها المرأة هل تفضلي إن خانك زوجك أو خطيبك او حبيبك أن تعرفي ام تحتفظي بصورة وهمية عن حبه المثالي لك، تركت هذا السؤال الذي أشعل المجموعة، رأيت مشاجرات كثيرة بين النسوة في التعليقات، دُهشت من الإجابات، بدا بشكل واضح أن النسوة المتزوجات يفضلن أن لا تعرفن حتى لا تهدم منازلهن بينما الفتيات غير المتزوجات لا يرغبن في أن يصبحن مغفلات، كان هذا مؤشر بالنسبة لي، ثم وضعت سؤالي الثاني في رأيكن لماذا يجب أن يتزوج الإنسان، مرة أخرى انقسمت الإجابات بين النسوة وبدا الفرق واضح تبعاً للحالة الاجتماعية للمرأة، قالت النسوة المتزوجات ومنهن زوجات رجال اعرفهن، من أجل الأنس، من أجل إنجاب الأطفال، من أجل إقامة عائلة ونسبة قليلة أجابت من أجل الحب، أما الفتيات كانت لديهن إجابات أخرى من نوعية تتمحور حول الحب والشراكة وتخفيف أعباء الحياة، ولان هذه سنة الحياة، كان هذا أيضاً مؤشر، ثم وضعت سؤالي الثالث كم تشعرن بالوحدة في حياة كلاً منكن، ذهلت من الإجابات فقد تساوت نسبة النساء اللاتي يشعرن بالوحدة تقريباً بين المتزوجات وغير المتزوجات وكانت هذه المرة الأولى التي تتساوى فيها نسبة إجابة على سؤالاً ما، وهذا أيضاً مؤشر.

حاولت استجماع أفكاري لكتابة المقال تقول هذه المؤشرات أن غالبية أسباب الزواج ترجع إلى الخوف من الوحدة أكثر من حب الارتباط، كما يتبين أيضاً أن الجميع يعاني من الوحدة بقدر ما، ويبدو أن هذا القدر كبير جداً، إذن لماذا نتزوج ونُحب، لهذا سأكتب مقالي بعنوان ١٦ سؤال في الحب

_ هل عدم الزواج يُسبب الوحدة؟

نعم، فقلد خالقنا الله ونحن بحاجة لعلاقة عميقة لطرف من الجنس الأخر.

_ إذن هل الزواج يقضي على الوحدة؟

الإجابة بالتأكيد لا، نحن كائنات اجتماعية مثلما قالوا لنا، لكن لم يَقُل لنا أحد إن هناك نسبة من الوحدة ستظل ترافقنا في أي وضع كنا، سواء أصبح لدينا شريك ام لا

_ ما هو الحب؟

الحب هو الاستعداد للتضحية.

_ كيف نقلل من الوحدة؟

الحب طبعاً والصداقة والعمل كلها اشياء تقلل من الوحدة لكن لا تقضي عليها.

_ ما هو الحب؟

الحب حين تتعرى داخلياً مثلما تتعرى خارجياً في العلاقة الحميمة في الزواج، فليس تعري الجسد سوى وسيلة لتعري الروح.

_كيف نقضي على الوحدة؟

السؤال الصحيح هو لماذا نعتبر الوحدة عدو لنقضي عليها.

_ ما هو الحب؟

حين تصبح الحقيقة لأول مرة أجمل وألذ من الخيال بالتأكيد يكون هذا هو الحب.

_ إن لم تكن الوحدة عدو، فهل هي صديق؟

نعم إذا تحولت إلى خلوة يختلي فيها الإنسان بنفسه، يخرج منها الإبداع، ففي التربية مثلاً ينصح الخبراء الامهات بحجب مصادر التسلية عن أولادهم لفترة، وذلك لكون أوقات الملل تجعل الاطفال يبتكرون.

_ ما هو الحب؟

حين لا أخاف منك فأنا أحبك.

_ أيهما أفضل جنة الوحدة أم نار الحب؟

أكثرنا يفضل نار الحب عن جنة الوحدة فيظهر ذلك في اختيار أكثرنا وإن لم يقولوا ذلك علانيةٍ الدخول في علاقة سيئة على البقاء وحيداً، لكن لن أردد شعارات رنانة، فلكل إنسان الحق في أن يختار الطريقة التي يُعذب بها.

_ ما هو الحب؟

حين تنتهي عدواتي مع الوقت وأنا مع مَن أُحب، فلا أنا أقطعه ولا هو يقطعني.

_لماذا يجب أن نُحب؟

لأنه ليس بإرادتنا، هل تتساءل لماذا يجب أن نتنفس، أو لماذا ننام، كذلك الحب، ظاهرة إنسانية طبيعية.

_ ما هو الحب؟

حين أسلمك روحي وأشعر أنها بأمان معك

_ هل أمومة أهم دور للمرأة وماذا عن المرأة التي ليست أم؟

نعم الأمومة أهم دور للمرأة، ولكن لا توجد إمراه ليست أم حتى التي لم تُنجب، إننا النسوة نستطيع إعادة خلق الحياة داخل بطوننا أو داخل عقولنا، نضع طفلاً، أو نضع عملاً مبدعاً جديداً.

_ ما هو الحب؟

حين يكون هناك سببه أستيقظ من أجله في الصباح يكون هو الحب.

_ كيف نصبح سعداء في الحياة؟

السعادة لا تأتي للجبناء، السعادة تُخلق لا تمنح.

في عيد الحب، عزيزتي العازبة أو المرتبطة لكن تشعري أنك مع الشخص الخطأ، أو مع الشخص الصحيح، لا يهم، فالحب يُخلق أيضاً، يمكننا أن نجعل كل فعل في حياة، هو فعل حب، استيقاظي في الصباح هو فعل حب، حين أضع في نيتي أن وجودي في الحياة لمساعدة غيري، هناك مخلوق في هذه الحياة يحتاج ابتسامتي، وقتي، تركيزي، لقد خلقنا كائنات نُحب، نحب الله والفراشات والزهور وأيضاً نحب شخصاً ما حتى إن لم يظهر حتى الآن.

الآن أفكر هل لو عاد بي الزمن لكنت غيرت حياتي حقيقة لا وكذلك كانت إجابة معظم النسوة في مجموعة النساء الخاصة.

الحكاية السابعة عشر: موسم الصيد

_ هبه.. ما تيجي أعزمك على حاجة في كافية

نظرت إلى هشام زميلي في العمل وصديقي ثم قلت له

_ ماقدرش

_ لية بقى

_ عشان أنت مش جاهز للجواز وأنا عايزة أتجوز، وخروجنا سوا هيأثر عليا، لازم مخرجش مع حد عشان ابعت رسالة للاوعي بتاع أي شاب فاضية ومتاحة، ولما اتخطبت هابقى بتاعته لوحده.

ابتسم هشام لي في دهشة

_ إنتي مجنونة.. أقسم بالله

ضحك ثم انصرف، آه يا هشام، إذا كنت تسعد بصحبتي لماذا لا تتزوجني، الفارق العمري بيننا مناسب وفي نفس الطبقة الاجتماعية الواحدة وتعلم طريقة تفكيري، لماذا يا هشام، لماذا يا زفت؟!

جاء موعد الانصراف، خرجت مسرعة وتوجهت إلى عيادة طبيبتي الخاصة، كنت قلقة بشأن الموعد منذ آخر كشف، حين علمت أن عندي ورم خبيث في الرحم، في هذه الزيارة أخبرتني طبيبتي، إنه يمكننا الانتظار من عام إلى ثلاث أعوام كحد أقصى ثم يجب أن نستأصل الرحم، استمعت إلى كلمات الطبيبة في أسى، قلبي ممزق، يجب أن أتزوج في ظرف عام على الأكثر وفي العام التالي أنجب وفي العام الثالث أستأصل رحمي.

****

ليلتي الأولى في الفراش بعد ما علمت أنه ليس أمامي أكثر من ثلاث سنوات والا لن أصبح أم تشبه الليلة الأولى لك في القبر، شعرت أن غرفتي هي قبري، نظرت إلى نفسي في المرآة، مَن أنا، شعرت إذا أنتزع رحمي مني، سأكون كشجرة الذابلة، جفت أوراقها وذهبت الحياة عنها، لذا اتخذت قراري يجب أن أتزوج هذا العام، بأي شكل.

****

في اليوم التالي ذهبت إلى صديقتي سلمى هي متزوجة وطلبت منها طلب

_ سلمى.. مش أنا صاحبتك وانت عايزالي الخير

_ طبعاً

_ أنا عايزة أتجوز.. شوفيلي عريس

صمتت سلمى ثوانٍ ثم قالت باستغراب

_ عريس

_ آه عريس.. اشمعنا الرجالة من حقهم يقولوا لحد شوفلنا عروسة.. أنا عايزة اتجوز

_ حاضر يا هبه.. لو في حد كان بيدور على عروسة ومناسب ليكي هقولك

_ جوزك

بُهتت سلمى فأكملت

_ لا قصدي جوزك.. أكيد له صحاب ومعارف عايزين يتجوزوا

_ حاضر يا هبه.. صدقيني هشوفلك.

****

في المساء، كنت وحيدة، حين يأتي المساء أصبح وحيدة جداً.. فتحت هاتفي كالعادة.. ثم خطرت لي فكرة، ألم نسمع عن زيجات كثيرة تمت من خلال الفايسبوك.. لماذا لا يحدث هذا معي.. كل هؤلاء الأصدقاء، لماذا لا توجد علاقة بيني وبينهم، ثم فتحت قائمة طلبات الصداقة، وجدت طلبات صداقة من ذكور، فتحت صفحاتهم لأرى الحالة الاجتماعية لكلاً منهم، لكني لم أجد شخصاً مناسباً وإن وجدت كم ستأخذ فترة التلميحات تلك ثم يطلب مني أن نتعرف في الحقيقة، ثم جاءتني فكرة أجن منها، لما لا أستخدم تطبيقات مواعدة مباشرةٍ، لكن لا أدري إن كانت هذه التطبيقات آمنة أم لا، ربما يحتال عليّ أحدهم أو ربما هي لغير الجادين، كيف لي أن أعرف في النهاية قررت أن أنشاء حساب دون أن أضع بياناتي الحقيقية وأتركه لحين.

******

بعد مرور أسبوع

ذهبت إلى مدينة الملاهي، كنت أحب أن أرى الأطفال وهم يلهو بصحبة أمهاتهم، هناك رأيت جارتي مع ابنتها ذات الثلاث سنوات وطفل رضيع، ألحت الطفلة أن تصعد إلى أحد الألعاب لكن الأم كانت منشغلة مع طفلها الرضيع لذا طلبت مني أن أصطحب ابنتها بدلاً عنها في هذه الألعاب، أخذت الطفلة لارا وركبنا جميع ما اشتهت من الألعاب، بدا أن الطفلة كانت سعيدة معي، حتى في نهاية اليوم تعلقت بي ولم ترغب في الرجوع مع أمها، لكني اقنعتها آسفة أن تذهب إلى والدتها ثم قبلتها، فوجدت الطفلة تجذبني حتى أنزل إلى مستوى وجهها ثم وضعت هي بدورها قبلة على خدي وودعتني، تخيلت إني أخذت الطفلة معي إلى بيتي، وأعددت لها الطعام المفضل الذي تحبه، ثم قررت أنني حين أنجب طفلة سأقوم بتسميتها لارا تيمناً بها ثم عُدت إلى منزلي وكان هناك محل بجوار البيت يقوم بصنع أعمال يدوية طلبت من العامل أن يصنع لي ميدانية ويكتب عليها أم لارا، ابنتي القادمة استبشاراً بالخير.

****

في اليوم التالي جاءتني مكالمة من صديقتي سلمى وأخبرتني أن هناك مفاجأة، فقد وجدت عريس لي زميل زوجها في العمل ويجب عليّ أن آتي غداً في النادي لأراه في صدفة مرتبة من سلمى وزوجها، وإذا أعجبنا ببعض يمكن أن يأتي إلى منزلي لزيارة والدتي، استعددت للموعد وتجملت له، حين وصلت استقبلتني سلمى وزوجها تحدثت معهم قليلاً ثم ظهر العريس يدعى مدحت مظهره جيد إلى حد كبير لكن لا أعلم لماذا جاء مرتدي بدلة كاملة، جسده ممشوق يبدو أنه مداوم على الرياضة، يلبس نظارات طبية وله لحية زادته جمالاً، بعد عدة دقائق تركتني سلمى وزوجها معه بمفردنا، في البداية لم نجد ماذا يمكن أن يُقال، تعارفنا بشكل تقليدي وتحدثنا عن طقس لدقائق ثم أخبرني عن نفسه قائلاً

_ على فكرة أنا غيور جداً.. مش عايز دي حاجة تضايقك.. أصلي لو ماكنتش بحبك مش هغير عليكي.

أرعبتني الدخلة.. كل فتاة شرقية تحب أن يكون رجلها غيور، لكني دائماً ما كنت أتحسس مسدسي عند سماع هذه الكلمات ثم أجابت

_ الغيرة مش وحشة طبعاً.. لكن لما بتزيد بتخنق

_ لا ان شاء الله مش هتتخنقي

أتبع كلامه بابتسامة جميلة طمأنتني قليلاً ثم قال

_ بصي يا ستي.. بالنسبة للخروجات، هنحاول نقلل على قد مانقدر.. مش هحبسك طبعاً.. بس كفاية أوي مرة أو أتنين في الأسبوع.

صمت قليلاً، تُرى ماذا سيقول هذا البغل، إذا علم إنني أسافر لوحدي أحياناً، سيكون هذا مصدر ضيق كبير لي، لكن لا بأس يبدو أن جميع النساء يعيشن مثل هذه الحياة، يبدو أن الثقة التي وضعها أهلي لي كانت استثنائية، يجب أن أعتاد أتنازل عن حريتي من أجل لارا ابنتي المقبلة، ابتسمت له ابتسامة حاولت أن تكون طبيعية ثم قلت

_ إذا كان على الخروج.. أمره سهل.

ابتسم وقال

_ خير خير.. سلمى قالتلي انك صحفية

_ آه فعلاً أنا محررة بقسم المرأة والمجتمع.

_ بصي.. بالنسبة لعمل المرأة، أنا بفضل أن الست تكون متفرغة لبيتها وجوزها، لكن لو شغلك بيسعدك، ماقدرش أمنعك عنه، مع أن عمل الصحافة صعب شوية بالنسبة للمرأة، مافضلش ليها غير أنها تكون في مهنة حكومية عشان يبقى عندها وقت تعمل بيت وأسرة أو طبيبة نسائية.

علقت معي الكلمة لماذا طبيبة نسائية تحديداً فسألته

_ اشمعنا يعني دكتورة

ضحك ضحكة سمجة ثم قال

_ عشان تكشف على الستات طبعاً.. أنا لسة أخويا متخانق مع مراته عشان عايزة تولد عند دكتور مشهور، وهو طبعاً رافض ده.

توقعت ذلك، أستعجب كثيراً من هذه الفئة، أنها ترفض عمل المرأة بينما ترغب في إيجاد طبيبة نسائية لتوليد زوجاتهم، فهو يرغب أن تولد الطبيبة زوجته في أي وقت وتكون متاحة له لأن الطب رسالة، في حين أن كانت زوجته هي مَن تُؤدي هذه الرسالة، لكان اتهمها بالتقصير في حق منزلها وزوجها، ثم تذكرت ابتسامة لارا لي الجميلة، تنهدت قائلة من أجلك يا ابنتي المستقبلية سأتحمل تحكم هذا الحلوف، فأنا أحتاج لكروموساته حتى تأتي إلى هذا العالم، وقلت لنفسي أنني أدعم المرأة وأرفض مقولة أن الرجال تتفوق على النساء في العمل، سأعتبر ذلك تشجيعاً

لدور المرأة، لكن جاء في بالي فكرة أزعجتني، منذ يومين كنت أعمل على تحقيق ختان الإناث، يجب أن أعرف رأيه في هذا الموضوع المحوري.

_ ممكن أسأل حضرتك سؤال.. أنا كنت شغالة من يومين في موضوع ختان الإناث وكنت حابة أعرف رأيك

ظهرت تلك الابتسامة اللزجة عينها، يا الله، هل لو تزوجنا سترافقنا ابتسامته اللزجة هذه طول الحياة ثم قال

_ طبعاً انت صحفية بقى، أكيد هتقولي دي جريمة وغسيل الدماغ اللي ملوا بيه عقولكوا..

لم أستطع أن أحتمل أن يكمل هذا الحمار حديثه، فقد تخيلت طفلتي لارا المستقبلية وهي تنزف من أن تم قطع جزء من جسدها وهو من حقها، سامحك الله يا سلمى لم تجدي غير هذا المتخلف لأتزوجه، استأذنت منه ثم تركته وقلت لسلمى أن تقول لزوجها أن ليس هناك نصيب

عُدت إلى منزلي يملاني الحزن، أتحسس بطني الفارغ بحثاً عن طفلاً غير موجود، كنتُ من فرط تعلقي بفكرة الإنجاب أشعر بدوار وغثيان كأنني أحمل طفل في أحشائي، وضعت رأسي على وسادتي، لماذا رفضت هذا العريس، ربما كنا وجدنا طريقة للاتفاق، أطبقت جفني على عيناي ونزلت دمعتي على خدي ثم ذهبت إلى النوم كمَن يذهب إلى سجن لا خيار له في مغادرته

****

بعد مرور شهر آخر، هاتفتني سلمى مرة أخرى لتخبرني عن عريس جديد، ملأني الحماس كالعادة، هندمت نفسي وذهبت إلى لقاءه، بدا أقل رونقاً من العريس السابق، لم تعجبني هيئته، لكني تغاضيت عن ذلك، حدثته ودياً ثم سألته هل يُفضل أن أعمل بعد الزواج، جاءني رده

_ طبعاً.. أنا أحب الست اللي تشتغل اللي ليها طموح وكيان

أعجبت برده ثم استرسلت

_ أنا بشتغل صحفية ووقت كتير بيضيع مني في البحث

_ طالما بتعملي حاجة هتسعدك أنا معاكي وهساعدك

_طب ومرتبي

_ أنا شايف ان الحياة مشاركة، انت مش شايفة كدة برضو

_ معاك حق

_ يعني نتشارك في الشقة والجهاز والمصاريف والفرح وكله..

صمت قليلاً ثم قلت

_ تمام

_ وليا شوية تحفظات كدة.. محبش الزيارات الكتير، لا نروح لحد ولا يجيلنا عشان البيت ده مكان خصوصية لينا احنا بس

_ تمام برضو

_ آه وحاجة كمان.. ماما.. أهم حاجة أمي.. عشان أنا فسخت خطوبة قبل دي بسبب عدم رضا أمي

لم أستريح في المقابلة الأولى لكن عملاً بنصيحة سلمى لي أعطته فرصة ثانية حتى تأكدت من شكوكي إنه بخيل وليس هذا فقط لكنه غير مستقل عن والدته وسيطرته هذه أدت إلى فسخ خطبته الأولى، حاولت تحمله لكني لم أستطع، لذا لم أوافق عليه

****

أخبرتني سلمى أن أتضع قليلاً وأحاول أن قلل من متطلباتي الشخصية، حيث رأت أن مواصفات شريك حياتي خيالية قائلة

_ يا بت افهمي الصنف كله كدة وإحنا بنختار أحسن الوحشين، وبعدين سامحيني إنت مش بتعرفي تتعاملي مع الرجالة

_ يعني أية يتعمل وماعملتهوش

_ الراجل عامل زي الطفل الصغير، وتقدري تاكلي بعقله حلاوة يعني في حد يحب كلمة حاضر تقوليها عمال على بطال وواحد يحب الأكل يبقى تتعلمي تطبخي له أصناف وأشكال، في اللي يحب الجنس، دي بقى ماقولكيش عليها

_ والله وطب وحقوقي أنا

_ هما الرجالة كدة اتربوا أنهم يرتاحوا والست تعمل كل حاجة تريحهم

_ أقولك على حاجة بس متزعليش

_ قولي

_ ده شغل عاهرات، كل عاهرة بتعرف داخلة الراجل اللي معاها وتتشكل على حسب مزاجه بس الفرق، العاهرة بتبقى عايزة عائد مادي لكن هنا انت عايزة عائد معنوي ومادي.

تركت سلمى لم أحتمل أن أكمل الحديث معها وتركتها ثم فكرت هل يمكن أن تكون سلمى على حق، على يمكن أن يكون ما أقراه من كتب دخل أفكار في رأسي لا يمكن أن تترجم إلى واقع، حين وصلت منزلي، لم أستطع أن أجلس مع والدتي واتناول العشاء كالعادة، ذهبت غرفتي وبكيت، بكيت كما لم أبكي من قبل، ثم سمعت صوت هاتفي، جاءني إشعار من تطبيق المواعدة، فتحته فوجد شخص يدعى أيمن يراسلني، نظرت إلى صفحته على التطبيق، بدا لي شخص محترم لكن كيف لي أن أعرف إنه تطبيق مواعدة، لكني كنت في حالة يُرثى لها، وكنت أحتاج إلى أن أتحدث إلى أحدهم، لا أعرف ماذا فعلت، لكني راسلته أيضاً.

****

بدا الحديث مع أيمن ممتع إلى أقصى حد، كنت أنا أيضاً سعيدة بوجود شخص في حياتي، شيئاً فشيئاً توطدت علاقتي بأيمن وشعرت أنني وجدته أخيراً، حينها تذكرت كلمة قالها هشام لي ستجدي الشخص المناسب في المكان الذي لا تتوقعي أن تجديه فيه، ربما هذا ما حدث، طلب أيمن أن يقابل والدتي، وبالفعل قابلها ونال إعجابها وقبل تحديد موعد للخطوبة صارحني أيمن أن لديه مرض السكر والمشكلة أن هذا المرض أفقده قدرته على الإنجاب

أصبحت في حيرة من أمري، إني رغبتِ في الزواج كانت من أجل أن أنجب طفلاً ولم أجد الشريك المناسب والآن بعدما وجدته يتعين علي أن أتخلى عن حلم الأمومة، حذرتي سلمى قائلة، إن حدث الزواج ثم بعد عدة أعوام اكتشفتِ انكما لا تناسبان بعضكما ثم حدث طلاق ستكونِ حينها قد ضحيتي بقدرتك على الإنجاب من أجل الشخص الخطأ، أرعبني حديث سلمى وجعلني أُعيد النظر في الأمر كله.

****

مضت أربع سنوات الآن فقدت رحمي، جزءاً هاماً من أنوثتي، لكن ما يُهم هو أنني أحيا الآن بجانب زوجي وابني، فقد تزوجت أيمن، كان الاختيار صعب وقاسي، لكني أخترت الطريق الصعب، لم يكن هناك ضمانات على أن زواجي

بأيمن سينجح مثل كل شيء في الحياة ومع ذلك فقد أخترت أيمن، ثم قمنا أنا وهو بتبني طفل جميل من أحد دور الأيتام، شعرت حينها أن الله أخذ رحمي كي أجد أيمن وابني الحبيب يوسف.

الحكاية الثامنة عشر: الأشباح

يمكنني أن أصنف هذا الأمر إنه جيد أم سيء، انطلقت برفقة زوجي نحو منزلنا قلت له

_ انظر منزلنا هناك

ابتسم ابتسامة حزينة ثم قال

_ لم يُعد منزلنا يا ليندا منذ الآن فصاعداً

_ كيف ذلك، الا تتذكر كم تعبنا من أجل أن نشتري هذا المنزل في هذا الموقع، انظر يوسف ورؤوف هناك

_ مَن هؤلاء الغرباء الذين في منزل

حاولنا أنا وزوجي الطيران نحو المنزل، وجدنا شخصان رجل وأمراته يعيشان في منزلنا

_ توفيق.. هل يكون الأولاد قد باعوا المنزل

_ يبدو ذلك يا ليندا.. يبدو أنهم قد باعاه ثم اقتسموا ثمنه فيما بينهم

_ لكن إنه منزل العائلة

_ أي عائلة يا ليندا، فقد ماتا الأب والأم وتفرق الإخوة

جاءتني رغبة شديدة في الذهاب إلى غرفة نومي، طرت إلى هناك وحاول توفيق أن يلحق بي

_ ليندا إلى أين ذاهبة

_ أود أن أعرف مَن سينام على سريري

ذهبت إلى غرفة وجدت أن صاحبة المنزل الجديد فقد غيرت أثاث المنزل، يا الله ما هذا الذوق البشع وكيف لها ان تُغير ألوان طلاء الغرفة، يبدو أن صاحبة المنزل الجديدة ذوقها متدني للغاية، لو كنت مازالت حية حتى الآن لكنت قتلتها، جاء زوجي وجذبني لنذهب

_ هيا يا ليندا.. لم يعد هذا المنزل بيتنا

_ لا أستطيع أن أُصدق هذا.. لقد عشت في هذا المنزل أكثر من عشرون عاماً والآن لم يعد ملكي

_الأمور لا تُحسب هكذا يا ليندا.. هي نذهب عندي مشوار

_ إلى أين

_ أود أن أعرف ماذا حدث لسيارتنا

_ توفيق.. لا تكن أحمق، السيارة قد دُمرت في الحادث.. هل نسيت

_ لا لم أنسى.. لكني أود معرفة ماذا فعلوا الأولاد بمال بويصلة التأمين على السيارة

لقد أشتروا أولادنا كلاً منهم سيارة خاصة به، من مبلغ التأمين بالإضافة إلى ما كان معهم، وأثناء ما نحن وافقين، وجدت زوجي يجري وراء شخصاً ما يمسك في يديه كتاب

_ ماذا تفعل

_ إنه يحمل كتابي

_ تقصد إنه يقرأ أحد الكتب الذي قمت بكتابتها

_ نعم.. هيا نذهب إلى دار النشر الخاص بي، أريد أن أعرف هل كتبي مازالت تُقرأ وهل لازالت أغير تفكير الناس بكتبي.

_ مهلاً مهلاً.. دار النشر بعيدة جداً عن هنا، ثم أخبرني ما أهمية ذلك الآن، إن كانت كتبك تُغير تفكير الآخرين، فهذا لن يؤثر علينا، فلقد تركنا هذا العالم والآخرون لا يعنوا لنا شيئاً، لاسيما إن كنا لا نعرفهم

_ كيف ذلك، بل ستؤثر.. ستؤثر على ذكرنا في هذه الحياة، أود أن أعرف مَن مِن الكُتاب أنزل نعي لي وماذا كُتب عني، ما الأثر الذي تركته

_ حسنا، لقد فهمتك الآن وأنا أيضاً أود معرفة هل صديقاتي في النادي مازلن تحيين ذكراي أم لا

_ إذن لدي فكرة، كلاً منا يذهب إلى معرفة ماذا يفعل أحبائه ونلتقي آخر اليوم عند منزلنا أو الذي كان منزلنا

******

بالفعل انطلق كلاً منا إلى واجهته، حتى أتى آخر المساء، وصلت قبل توفيق بقليل، ثم جاء هو شاحب الوجه حزين، سألته

_ ماذا

_ كم مَر من الوقت على وفاتنا

_ أنت تعلم أن هناك فرق توقيت بين عالمنا وعالمهم، أمس بالنسبة لنا يساوي عندهم سنوات وأكثر

_ مبيعات كتبي جيدة

_ إذاً ما المشكلة

_ لا أحد يتذكرني، المدير الذي جاء بعدي، هدم كل ما فعلت، توظفيني كلاً منهم في حياته منشغل، كل هذا متوقع، لكن حتى إخوتي، لا أحد يذكرني الا حينما يتشاجرن على ما تركته من ميراث.

_ نعم أفهمك.. فأنا أيضاً مثلك، الجميع منشغل في حياته، صديقتي نادية التي كنت أحل مشاكلها مع زوجها دائماً لا تعد تتذكرني الآن وكأني لم أكن، حتى ياسمين التي كانت لا تتوقف عن طلب المساعدة مني، لم تحضر حتى جنازتي

_ لا بأس يا ليندا.. نحن نعلم أن هذه الحياة بها ما يكفي من المشاغل، نحن أيضاً حين كنا أحياء، لم ننوح طوال الوقت على أحبائنا، ومَن كان يفعل ذلك كنا نرسله إلى الطبيب النفسي

_ معك حق، يبدو أننا توفينا منذ مدة، لذا لم يَعُد يذكرنا أحد، أتعلم بماذا أرغب الآن

_ ماذا

_ أرغب في ارتداء مجوهراتي، فقد كان لدي مجموعة مميزة منها، أتذكر تلك القلادة التي كانت على شكل فراشة

_ لقد أعطاها ابنك الكبير إلى زوجته ميسون

_ ماذا!! ميسون التي كنت أعارض زوجه منها، لو رأيتها الآن لقضمت رقبتها الذي يلتف حولها عِقدي المفضل

_ لا وقت لتلك الأمور الآن.. فسيأتي مقدر الأرواح لآخذنا معه

_ نعم.. لكن أين هو الآن

_ اغمضي عينك وافتحيها مثلما سأفعل وسنجده هنا

(ظهور مقدر الأرواح)

_ كيف حالك سيدتي ليندا، كيف حالك يا سيد توفيق، أتمنى أن تكونوا سعدته برحلتكما الثانية إلى الأرض كما رغبتم في ذلك

قال توفيق

_ الحقيقة ليس كثيراً

قال مقدر الأرواح

_ هذا ما يحدث دائماً، تذكروا إني حظرتكم من ذلك، والآن يؤسفني أن أبلغكم هذا الخبر السيء

قلت أنا وتوفيق في لهفة

_ ماذا

أجاب مقدر الأرواح

_ لقد تأخرتم جداً في رحلتكم إلى الأرض، لذا لا يمكنني أخذكم معي

قال توفيق

_ إذا أين سنذهب

_ أي مكان ترغبون على الارض

قلت أنا

_ هل سنعيش مرة أخرى

قال مقدر الأرواح

_ بالطبع لا، سترجعون إلى الارض في هيئة أشباح حتى يأتي يوم القيامة

ذهلت أنا وتوفيق وحاولنا إقناع مقدر الأرواح أن لا يتركنا كأشباح في هذه الأرض لكنه قال

_ أنكم تعتقدون أن بإمكانكم جعلي أتراجع عن هذا القرار ببعض من المحاولات لإقناعي، مثل هذه الأمور تحدث عندكم في الأرض فقط، القرار قد صدر، أنتم الآن

لستم سوى أشباح، وهذا ليس ظلماً، فالأرواح التي تظل معلقة بما كان لها في الأرض تتحول أشباح، وأنتم إلى الآن تحبون الأرض، والآن أغمضوا أعينكما، سأنصرف

رحيل مقدر الأروح

سألت زوجي ماذا سنفعل الآن وإلى أين سنذهب

قال زوجي في أسى

_ نحن لا نعرف سوى منزل واحد، هو منزل العائلة، سنذهب إليه

_ لكن هذا المنزل به سكان آخرين، وأصبح ملكهم ولم يعُد ملكنا

_ ألم نصبح الآن أشباح، ألم تسمعي عن أناساً غادروا منازلهن لأن بها أشباح

****

أعجبتني فكرة توفيق، بالفعل ذهبنا إلى منزلنا القديم، ونمت على سريري في غرفتي، لكن تلك السيدة الحمقاء التي أشترت منزلي كان لها ذوق سيء في تنسيق ديكور المنزل، لذا كنت أفعل خير لها واغيره كل صباح بما يناسب، وتصبح هي مفزوعة كيف يتحرك أثاث المنزل كل صباح، وكذلك زوجي توفيق حين يقوم هذا الرجل الذي بلا ذوق بتغيير محطة التلفاز إلى شيء لا يعجبنا أنا وتوفيق، يقوم زوجي بتغيير المحطة مرة أخرى، وكذلك اتذكر كم مرة ضحكت من قلبي، حين كان زوجي يقرأ الجريدة ويقف الرجل صاحب المنزل مذهولاً كيف تقف الجريدة دون أن يمسكها احدهم، وهكذا حتى ذهبوا سكان هذا المنزل، وجاء سكان آخرون ثم نقوم أنا وزوجي بإزعاجهم حتى يذهبوا، وسنظل كذلك حتى نتحول من أشباح إلى أرواح في يوم القيامة.

الحكاية التاسعة عشر: مذكرات فتاة في الثانية عشر

إنني لستُ فتاة عادية، حتى العام الماضي كنت فتاة عادية أما اليوم فأنا لستُ عادية، مات أبي الذي أحِب، أصبحت بمفردي في هذه الحياة، لا أحد سوف امتطى على ضهره ثانياً، لن أرى يبتسم مرة أخرى، لكن ما يؤذيني ليس موت أبي نفسه بل انتحاره.

******

سمعت في عزاء والدي أنه منتحر وأنه سيذهب إلى الجحيم الأبدي، انسحبت حينها إلى غرفتي ودفنت رأسي في وسادتي ثم بكيت، بكيت كثيراً، فعقلي لا يُصدق أن والدي سيُعذب للأبد.

سألت والدتي في اليوم الثاني

_ هل سيتعذب والدي للأبد

نظرت لي امي بريبة وقالت

_ لما تقولي ذلك

_ أمي.. لقد علمت أن مَن ينتحر سيتعذب إلى الأبد

صمتت أمي قليلاً ثم قالت

_ اتركي هذه الافكار من رأسك

لم يكن لدى والدتي إجابات لأسئلتي، لذا ذهبت إلى الانترنت، كنت أود معرفة إجابة سؤالي.

ظهر لي فيديو لأحد الاطباء النفسيين، يقول فيه أن الطب الشرعي يُفرّق بين مَن توفى نتيجة الاكتئاب وتحت سيطرة أفكار مرضية وبين مَن اتخذ هذا القرار وهو واعي بنفسه.

جريت على أمي، اسألها

_ أمي.. هل كان أبي مريض اكتئاب

صمتت أمي برهة ثم زفرت ضيقاً مني وقالت

_ لستُ أعلم.. لم يذهب والدك إلى طبيب نفسي لكنه كان حزيناً مكلوما قبل موته.. اتركي هذه الافكار من رأسك.. فكري في مستقبلك وحياتك

انسحبت وتركت أمي، لا أحد يفهمني، كنت أنام أحلم ليلاً بأن والدي يُعذب واستيقظ قلبي منقبض، بدأت أصلي لله، ثم خطرت في بالي فكرة إن أصبحت قديسة ورضيّ الله عني، ربما اقدر وقتئذ يسمع الله صلواتي ويرحم والدي.

بدأت التزم في مواعيد صلاتي وكذلك الأصوام، كنت أرغب في أن ارضي الله، وفي يوم جاءت في بالي فكرة، أن اجمع أكبر عدد من الناس ليصلوا لأبي، رأيت الشحاذين في الشوارع، أخذت أموال من محفظة والدتي ونزلت إلى الشارع وكل ما قابلت شخص ما يستعطى أعطيه مال واطلب منه أن يُصلي لوالدي، وحين عُدت إلى منزلي وحكيت لأمي ماذا فعلت، وجدت أمي اتهرتني بشدة، وجريت على محفظتها لتعد كام أخذت من المال وحين اكتشفت أن مبلغ كان ألف جينة، قررت عقابي لأني فعلت ذلك دون إذنها وضيّعت أموال البيت.

ذهبت إلى غرفتي وبدأت أبكي وأصلي لله، إن والدتي قد حطمت خطتي الاولى في تجميع أكبر عدد من الدعاء لابي، لذا قررت أن افكر في خطة ثانية، سأقتص من مصروفي مبلغ شهرياً وأتبرع به لأحد مرضى مستشفيات الخيرية ولتكن مستشفى سرطان الأطفال، حين دخلت على الموقع الخاص بهم على الانترنت، ورأيت تكاليف علاج كل حالة، اكتشفت أن أمامي مائة عام كي اصمد مبلغ علاج حالة تكون باسم والدي، لم يكن أمامي بُد من الرجوع إلى الخطة الأولى أن أصبح أنا قديسة وقتها ربما يسمع الله صلاتي من أجل أبي.

****

في السنة التالية، لا أعرف إن قدرت أن أصبح قديسة ام لا، فأمي لا ترضى عن معظم تصرفاتي وكذلك أكذب أنا أحياناً عليها كي اخرج مع صديقاتي دون علمها، كما أيضاً أتنمر قليلاً أنا وصديقاتي في الصف المدرسي على معلماتنا، وأقصر أحياناً في صلاتي، لا يبدو إنني مشروع قديسة ناجحة، لذا قررت أقرأ أكثر في هذا الموضوع وفي أحد الايام وأنا اعبث على الانترنت وجدت فيديو لأحد الاشخاص الملحدين، يقول أنه لا يؤمن بالله الذي يُرسل أُناساً إلى الجحيم لانهم يخالفوه في الفكر، وبدأت أتابع هذا الشخص وغيره كثيرين، ثم شعرت بالحنق تجاه الله، لماذا يُرسل والدي الحَنون الطيب إلى العذاب الأبدي، لأنه يأس من الحياة، تركت صلواتي المعتادة وابتعدت عن الله، لاحظت أمي ذلك وبدأت تسألني، لكنني كالعادة كنت أتهرب منها، وفي يوم عُدت من مدرستي حزينة مكروبة وجدت أمي في المنزل وأمامها صورة والدتي، فاتجهت نحوها لأكسرها

صاحت أمي بي

_ ماذا تفعلِ.. هل جننتِ

_ لماذا نحتفظ بصورة شخص نعلم أنه الآن يُعذب.. حتى نتذكر عذابه الأبدي

اقتربت أمي نحوي وبصوت حنون قالت

_ حبيبتي.. لا تيأسي من رحمة الله

_أين رحمة الله.. وأنا أعلم كل دقيقة وكل ساعة أن أبي يتعذب الآن وأنه سيُعذب إلى الابد

_ صغيرتي.. نحن لا نعلم شيء

بكت والدتي وبكيت أنا أيضاً، في المساء بدأت أصلي ثم بدأت اقترح على الله بعض المقترحات، لماذا تُعذب والدي إلى الأبد، يمكن أن تعذبه إلى حين ثم تنقذه، ثم اقترحت اقتراح آخر يمكن أن تعذبه إلى حين ثم تهلكه وكأنه لم يكن، كنت أصلي كل يوم من أجل أن يُغير الله معاملته لأبي، أو لأن يخفف عنه الآمه، حين أذكره في صلاتي، وحين شاركت إحدى صديقاتي صلواتي هذه، قالتلي إني جُننت، وأن صلواتي لا معنى لها، حينها عُدت إلى المنزل مكروبة، امتنعت عن تناول الطعام لأيام، أخذتني والدتي وقتها إلى الاطباء حتى تنقذني، وقتها بدأت فكرة الانتحار تراودني، كنت أرغب في الذهاب، لا أريد هذا العذاب النفسي الذي أنا فيه، حين علمت أمي بأفكاري توجهت بي إلى أقرب طبيب نفسي، ربما قد خافت أن أفعل بنفسي ما فعل أبي، وكذلك حين كنا عند الطبيب، فأول سؤال هو أن كان أحد في العائلة يعاني من الامراض النفسية، استمريت مع هذا الطبيب مدة ومع أدويتي النفسية ثم تركته من طبيب لآخر، ومثلما كانت حالتي النفسية تتغير، كانت أفكاري تتغير، ففي الصباح ألحد بالله وفي المساء أصلي له، لم أكن اعرف مَن أنا أو بماذا اؤمن.

****

انتهيت من قراءة فصول مذكراتي حين كنت في الثانية عشر، الآن وقد مرت الأعوام، بعد أن قابلت أطباء نفسيين كثُر حتى ساعدني هذا الحوار

_ هل الله صالح ورحيم

أجابت نعم

_ هل الله عادل ولا يشمخ عليه

اجابت نعم

إذا هل أكون أنا أرحم من الله، حاشا

هل أكون أنا أعدل من الله، حاشا

إذاً فلماذا الخوف، وإن كان قلبي الصغير به رحمة، فكيف تكون حينئذ رحمة الله الواسعة، يجب أن أثق بالله وبرحمته وعدله فأنه لن يظلم أبي، ولن يكون أرحم عليه مني، وتركت الأمر لله.

الحكاية العشرون: محكمة الحب

الآن نحن داخل محكمة الحب، تفضل السادة المستشارين بالحضور ثم حضر سيادة القاضي، يوجد الكثير من القضايا اليوم.

جلس القاضي والسادة المستشارين بجانبيه وقام حاجب المحكمة بالنداء على القضية الأولى، حضر المدعي والمدعي عليه.

المدعي يدعى سامي وهو قدم دعوة ضد المدعى عليها زوجته ياسمين، يتهمها فيها بأنها قد استنفذت جميع رصيد الحب الذي يكنه لها في قلبه فقد أصبحت لا تبالي به بالإضافة إلى عصبتيها واتهاماتها له بل قد يصل الامر إلى شكها فيه وهو يطالب إما التصالح وعودة العلاقات وإعادة شحن رصيد حبها إما الخروج من قلبه وانتهاء العلاقة

تفضل السيد سامي المدعي بالحضور، سأله القاضي

_ ما هي شكواك

_سيدي القاضي، إنني حضرت اليوم لأتهم زوجتي بأن رصيد حبها قد أوشك على النفاذ، ويجب أن تقوم بإعادة شحنه ثانيةٍ والا سأضطر أسفاً بإخراجها من قلبي

قاطعته ياسمين قائلة

_ سجل ذلك يا سيادة القاضي، إنه لا يحبني، إنه يرغب في إخراجي من قلبه

القاضي بحدة

_ سيدة ياسمين.. مَن سمح لكِ بالحديث، لا يجب أن تقاطعي الطرف الآخر

سامي: هل رأيت سيدي القاضي أنها كذلك طيلة الوقت، اتهامات لي بعدم الحب لها ثم عدم إخلاصي لها ثم رغبتي في اختلاق حجج للهروب منها، لا أدري لماذا تفعل ذلك، أنها استنفذت حبي لها

ياسمين باكية: هل لي أن أتحدث الآن

القاضي: تفضلي

ياسمين: سأعترف بكل شيء سيدي القاضي، زوجي عنده حق في شكواه عليّ، أعلم إنني إمراه سيئة الطبع، صعبة المعشر، لذا سيتركني الجميع، حتى زوجي سيهجرني

ينظر سامي إلى ياسمين في شفقة ويقول

_ لماذا ترين نفسك بهذه الصورة، انتِ يا زوجتي العزيزة إمراه فاضلة، تحبيني بحق وكذلك تحبي والداي، لماذا أهجرك، لكن فجأة تحتد طباعك وتتهميني باتهامات بشعة، ولم يعد لي طاقة لذلك

ياسمين: أعترف أنا أفعل هذا كله، لكنني خائفة، أخاف أن تهجرني أن تتركني مثلما فعل الجميع قبلك، أود أن تكرهني الآن، لأني لا أستطيع أن أحيا في انتظار هجرك لي

سامي: لكنني أحبك حقاً

ياسمين: وأنا خائفة، أحياناً يخبرني عقلي أن أتركك قبل أن تركني، أن أعيش بمفردي، قبل أن يتم رفضي مرة أخرى

القاضي: لا وقت للمزيد من الحديث، هناك قضايا أخرى في الانتظار، حكمت المحكمة على هذا الحب بإعطائه فرصة أخيرة حتى تتمكن السيدة ياسمين من الشفاء من خوفها وإن لم تستطع ذلك، فيكون من حق المدعي سامي إخراجها من قلبه.

القضية الثانية تتقدم

دخل المدعي السيد أكرم الذي رفع قضية تعويض لإهداره الكثير من المشاعر على زوجته دون أن تبادله هي نفس المشاعر، دخل المدعي السيد أكرم وعقبته زوجته السيدة رانيا، تحدث المدعي السيد أكرم

_ إنني أطالب بتعويض من السيدة رانيا زوجتي، لقد أنفقت عليها الكثير من المشاعر لكنها لم تبادلي بالمثل، فمنذ أن تزوجنا، لم أشعر أنها تحبني كما أنا، ترغب دائماً في تغييري، تغيير طريقة كلامي، ضحكي، أصدقائي، حتى طريقة تناولي للطعام

نظرت له رانيا بغضب ثم أشارت للقاضي

_ هل لي أن أتحدث

أشار لها القاضي بالحديث

_زوجي هذا الماثل أمام سيادتكم ويطالبني بتعويض، والحق أني أنا مَن يستحق التعويض، ادعاءه بمحاولتي تغييره الدائم صحيح، لكن هل سيدي القاضي، تعلم ما

أعيش معه كل يوم، إنه يأكل بطريقة مقززة، تصدر عنه أصوات مختلفة طيلة الوقت وروائح كريهة، هل تعرف سيدي القاضي إنه حتى لا يسحب السيفون خلفه

ضحك جميع الحضور، القاضي في حزم

_ لا داعي لهذه التفاصيل سيدة رانيا

ثم التفت إلى أكرم وقال

_ سيد أكرم، بماذا ترد على كلام السيدة رانيا

قال أكرم: لقد رأيت بنفسك سيدي القاضي، إن رانيا زوجتي تفعل ما تفعله دائماً تحط من شأني أمام الآخرين، تُشعرني بالتقزز من نفسي، هل لك يا سيدي القاضي أن تتخيل أن تحيا مع إنسان يُشعرك دائماً أنك كائن مقزز وكريه، لماذا تزوجتني إذاً، هل هذا ذنبي لأني أحببتها

قاضي لرانيا

_ هلا تفضلتِ لإجابة سؤاله

نظرت رانيا إلى أكرم وقالت

_ نعم تزوجتك، إنها غلطتي الكبرى، بعدما تزوجنا شعرت بالفارق الكبير بيننا، حاولت أن أطور من شخصيتك، لكنك كنت دائماً تقاومني بشدة، كنت في داخلي أشعر إنني أستحق أفضل من هذا، لكن الحظ يلعن هذا الحظ، لم أجد غيرك في محيطي لأتزوجه، كنت أفضل السيئين فقط لا غير

أكرم باندفاع

_هل سمعت سيدي القاضي، أنها تعترف، أنها لا تحبني

رانيا بغضب وانفعال

_ نعم.. لا أحبك، أكرهك أكره رائحتك وصوتك وطريقتك، لكني تزوجتك لأنك أحببتني، ورصيد حبك لم يعد يكفي كي أعيش معك

القاضي بحدة

_ كفى، أنتم داخل محكمة، سيد أكرم القضية منتهية، أنها خاسرة، خاسرة من قبل أن تبدأ، لقد سكبت مشاعرك في الشخص الخطأ، ومن الواضح إنه بدا لك أنها لا

تحبك، فلماذا إذاً أكملت، لقد كان هناك اتفاق غير معلن بينكما أن حبكما يسير في اتجاه واحد منك لها، والآن لماذا تطلب تعويض، فالقانون لا يحمي المغفلين، انتهى.

القضية الثالثة

المدعين فتاة تبلغ من العمر واحد وعشرون عاماً وتدعى سارة وأخيها آدم في التاسعة عشر ضد والدتهما قضية حب مسموم، دخلت الأم إلى ساحة المحكمة وهي منكسرة ثم نظرت إلى ولديهما بغضب ثم قالت للقاضي

_ اسمح لي سيدي القاضي، أن أعرف مَن بالتحديد رفع الدعوى آدم أم سارة

بدا الولدين خائفين من والدتهما، فقال القاضي

_ كلاهما

نظرت الأم مرة ثانية إلى ولديها وقالت لهما

_ مَن منكما صاحب هذه الفكرة، مَن منكما أقنع الثاني أن تضعا أمكما في هذا الموقف، يا خسارة عمري وشبابي الذي أضاعتهما في تربيتكما

نظر الولدين إلى الأرض ثم قالت سارة بصوت مرتجف

_ انا ماما صاحبة الفكرة

نظرت لها الأم بازدراء وقالت

_ كنت أظن أنك كفتاة ستشعرين بأمك

_ لهذا السبب تحديداً ماما، أنا صاحبة فكرة إحضارك محكمة الحب

تدخل القاضي قائلاً

_ على المدعوين توضيح شكوتهما

تردد الولدين في اختيار أي منهما يتكلم حتى استقرا أن يتحدث آدم

_ هلا سيدي القاضي، أعرفك بنفسي، شاب في التاسعة عشر من عمري، ابن ارملة تَعِس، ما ذنبي أن أصبح ابن لأرملة، حُرمت من كل متع الحياة خشية غضب أمي، جميع اصدقائي لهم أمهات محبات دافقات، لكن ابن الارملة له أم نصف رجل، حضنها خشن، مسيطرة، أنها ترى إني مشروع عمرها الأكبر، منعتني من السفر وقد كان حلمي السفر، لأنها تعتبر انها امتلكتني

نظرت الام بعين دامعة إلى ولدها وصمتت ثم قالت سارة

_ أخي محظوظ أكثر مني، فهو ولد وقد اعتبرته امي عوضها، لذا طبيعي ترفض أن يتركها، أما أنا الفتاة، فلم أنال أي مودة منها، كانت جافة، ترى في كوني فتاة تهديد في حد ذاته، أن فعلت أي تصرف يُحسب عليّ، حتى كرهت حياتي وكرهت الناس

مسحت الام دمعها وبعد أن أذن القاضي لها بالتحدث قالت

_ لو كنت أعلم أن أولادي سيقدمانني إلى محكمة حب بعد أن افنيت عمري من أجلهم، لكنت تزوجت وعيشت حياتي كما يحلو لي، اعترف إني كنت قاسية بعض الشيء لكن كان هذا لصالحهم، وكلام الناس لن يتركنا إن أخطأ أحدهم خاصة الفتاة، أما ابني، فهو ابني، أقل تقدير عما فعلته من أجله الا يتركني وحيدة

قالت سارة

_ ريتك تزوجتِ ماما، هذه أمنيتك السرية

صاحت الام قائلة

_ سارة اصمتِ.. إنك تهنيني

_ لست أهينك ماما لكني قلت لك، أنا الفتاة، لذا سأشعر بك، سيدي القاضي سأقول شيئاً لم أتفوه به من قبل، والدتي كانت تغار مني، لم أكن أفهم ذلك لكني كنت اشعر به، كانت تغار كلما كنت سعيدة، كلما رأت أن ممكن أن أحب وأتزوج وأنني صغيرة وجميلة

صاحت الام

_ سارة هل جننتِ

أحضر القاضي أحد حبوب الذي يُخرج ما في اللاوعي وأعطاه للأم فأخذته على مضض ثم قالت

_ نعم كنت أشعر بالغيرة ناحية أولادي، خاصة سارة، لقد تزوجت صغيرة في السادسة عشر أنجبت أولادي، وتوفى زوجي وأنا في سن سارة ترملت، شعرت بالألم كنت فتاة صغيرة، حُملت مسؤولية فوق طاقتي، حُرمت الحضن الدافئ، حُرمت السند، حتى الاهتمام بجمالي، لا تلومني أنا، بل هذا المجتمع الذي يعيب على الأم إن تزوجت ثانيةٍ، كنت أخاف وارتعد إن أخطأ أحد أولادي من أن يُقال

أنهن تربية إمراه، في داخلي كنت أكرههن، لأنهم حِمل ثقيل على أكتافي، نعم لقد كنتُ عصبية جداً معهم اعترف، لكني كنت عصبية بقدر ما كنت خائفة.

بدأت الام تبكي لكن قد صدر حكم القاضي بأن نموذج الحب الذي قدمته الأم مشوب وغير صالح فقد أفسد خوفها حبها ويحق للأولاد أن يشعرا ناحيتها بالغضب.

القضية الرابعة

دعوى استرداد قلب وقد رفعت هذه الدعوى السيدة مريم على السيد حاتم خطيبها السابق، دخلت مريم إلى قاعة المحكمة لحقها حاتم

قالت مريم

_ لقد أتيت إلى هنا لأعترف بأني أخطأت في حق خطيبي السابق حاتم وأرغب في استعادة قلبه مرة ثانية، نظر المدعي عليه حاتم وانتظر حتى يسمح له القاضي بالحديث حتى قال

_ سيدي القاضي لقد انتهيت من حب مريم نهائياً ولكن مريم لا تفهم ذلك

وصرخت مريم في المحكمة وقالت إلى حاتم

_ لا لا أنت لازلت تُحبني، لكنك غاضب مني، أنا لن أضايقك مرة أخرى

وفي حركة مباغتة ركعت مريم أسفل أرجل حاتم ثم قبلت يديه، صدرت همهمة عن جميع الحضور، أسكتها القاضي ثم أمر مريم بالنهوض

فقال حاتم

_ أرجو من سيادة المحكمة أن تمنع هذا الابتزاز العاطفي

تقبلت المحكمة طلبه ثم أصدرت حكمها بخسارة قضية استرداد قلب وحول القاضي مريم إلى هيئة النُظار لأنها بحاجة إلى رعاية طبية، ذهبت مريم معهم وهي تبكي

القضية الخامسة

المدعي هم جماعة ام المدعي عليه واصدقاءه واقاربه بأن المدعي عليه ابنهم البالغ من العمر سبعة عشر عاماً قد قصر في حبهم، أحضر المدعي عليه يوسف وقال

_ الأمر ليس بهذا السوء سيدي قاضي الحب، أنا كل ما فعلت إني وجدت الحياة مع الآخرين شاقة ومتعبة، فوالداي لا يفهماني وأما عن ساعات وجودي معهم فهي تعِسة وكئيبة، لذا كنت اتهرب منهم وأفضل الجلوس في غرفتي حتى لا نتشاجر أما اصدقائي فكثيراً ما شعرت بالخذلان منهم، لذا أبعدتهم عني، أما عن قلبي فلقد حفظته إنني لازالت أحفظ مشاعري، فأنا أبكي مع بطل مسلسلي المفضل وأفرح من أجله واتحمس عندما يحقق فريقي الرياضي الفوز وأغضب إن خسر، لا ادري لماذا يقولون إني بلا قلب، لدي قلب بالطبع، لكن مشكلته هي أنه لا يتفاعل في الواقع، ربما أصبحت احتاج موسيقى تصويرية كي أتأثر، ربما أحتاج كاميرات تركز على ملامح الوجه مثل المشاهد المؤثرة في المسلسلات، لا أعرف أهذا يعني إني فقدت قلبي إذن فليكن.

نظر قاضي الحب بأسف وقال ليوسف

_ يا بني، ماذا فعلت بنفسك، إن قلبك في طريقة لأن يتحجر، إن هذه المشاعر التي ينتجها طبيعي أن ينتجها لأنه لا يعرف سوى انتاج المشاعر، لكن يا بني انك لا تعرف ان تتفاعل في الواقع، إنك استبدلت كل ما هو حقيقي بكل ما هو زائف، سامحني يا بُني لقد خسرت الحب الحقيقي.

القضية الأخيرة

جاءت المدعية وهي السيدة نور وقالت أنها ترفع قضية على الحب نفسه، صدرت همهمة وجلبة في قاعة المحكمة وسألها قاضي الحب

_ ما هي مشكلتك يا سيدة نور مع الحب

_ لقد فاتني الحب يا سيدي القاضي

_كيف ذلك لكل إنسان نصيب من الحب

_ سيدي القاضي، إنني هنا كي أرفع قضية على الحب ذاته، لأنني اكتشفت أن الحب كي يعيش، يجب أن يعيش على الكذب والخداع وأنني إمراه صريحة، لذا لم يدُم لي حباً، أنني أحتقر الحب

تشاور القاضي مع المستشارين وقال

_ هذه أول قضية تأتي موجه ضد الحب الذاتي، لكن القوانين لدينا، لا تخبرنا أن الحب كي يدوم يجب أن نكذب، فالحب الحقيقي يقوم على الصدق

_ نعم سيدي، الحب الحقيقي يقوم على الصدق إنما بنظرة إلى الواقع ستجد أن جميع العلاقات بين البشر تقوم على الخديعة والكذب، أنا لا أستطيع أن أخبر صديقتي المقربة أن سلوكها السيء هو ما يبعد الناس عنها، لا أستطيع أن أخبر زوجي أنني لا أحب بعض أفراد من عائلته، لا أستطيع إخبار ابنتي أن وزنها قد زاد، ولا أستطيع إخبار ابني أن رسمته سيئة، وبهذا تكون العلاقات سلسلة من الأكاذيب، والا خسرت حب الناس لي

بدا القاضي متحير، تحاور مرة أخرى مع مستشريه وقال

_ القوانين لدينا واضحة، الحب والصدق مجتمعان لا يفترقا، فحين أحبك لا أستطيع أن اخدعك وحين تحبني لا يجب أن تكذب عليّ، لكن كل هذا لا الصراحة الكاملة الجارحة، إن الصدق مثل الدواء في العلاقات يجب أن يتخذ بجرعات محددة وقليلة، أن تم أخذ الدواء مرة واحدة فقد يموت المريض وهذا الامر نفسه مع الصدق، لا يأخذ كله والا تحول إلى وقاحة، فهو مثل دواء نأخذ جرعة قليلة منه مع راحة تامة للمريض، والآن سأحولك إلى مستشفى الامراض العلاقاتية حتى تتعلمي ما هي جرعة الصدق المناسبة وابتسم القاضي أخيراً وضم إليه المستشريين، لقد انتهت قضايا اليوم، والتئم هذا القلب الكبير الذي على باب محكمة الحب، في انتظار المزيد من القضايا.